

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

طارق حجي

نقد العقل العربي

من عيوب تفكيرنا المعاصر

دار المعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٣٣]

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

طارق حجّي

نقد العقل العربي

من عيوب تفكيرنا المعاصر

الطبعة الثانية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

إهداء ...

إلى روح الدكتور على عبد المنعم المفتى – الصديق الذى طالما قلت له (وهو يشكو ذئابَ البشر): تذكر أبياتَ إيليا أبى ماضى الخالدة:

قالَ: "السماءُ كئيبةٌ!" وتجهما
قلتُ: إبتسمْ يكفى التجهمُ فى السما!

قالَ: العدى حولى علَتْ صيحاتُهمْ
أأُسَرُّ والأعداءُ حولى فى الحمى؟

قلتُ: ابتسمْ، لم يطلبوكَ بذمهم
لو لم تكُنْ منهمْ أجلَّ وأعظما!

إلى هذه الروح النورانية فى الملأ الأعلى أُهدى هذا الكتاب (والذى لا توجد فكرة أو فقرة فيه إلاَّ وكانت محورَ حديثٍ مستفيضٍ معه فى صيفِ ١٩٩٧).

طارق حجى.

هذا الكتاب ...

فى سنة ١٩٧٨ صدر كتابى الأول "أفكار ماركسية فى الميزان"... واليوم (سنة ١٩٩٨) يصدر كتابى العاشر "نقد العقل العربى" وبين التاريخين عشرون سنة من الكتابةِ وعشرةُ كتبٍ... فماذا كانت الرسائلُ التى أرادت تلك الكتبُ العشرةُ (خلال السنوات العشرين) أن تذيعها؟

أرادت الكتبُ الثلاثة الأولى[1] أن تقول إن الفكرَ

(١) وهى "أفكار ماركسية فى الميزان" والذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٨ و"الشيوعية والأديان" والذى صدرت طبعته الأولى ١٩٨٠ و"تجربتى مع الماركسية" والذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٣ -وقد صدرت أكثر من ثلاث طبعات (فى تواريخ لاحقة) من كلِ كتابٍ كما صدرت ترجماتٌ بالإنجليزية لها.

الاشتراكى وإن تميّزَ بالعمقِ والأصالةِ الفلسفيةِ فى أكثرِ من جانبٍ من جوانبِه إلاَّ أنه لم ينجح على أرضِ الواقعِ فى تقديمِ نماذج مضيئة، إذ أخفق كليةً فى تحقيقِ ما وعد به من أهدافٍ ومارفعه من شعاراتٍ - ويبقى للفكرِ الاشتراكى شرفُ الاهتمامِ بالجانبِ الاجتماعى، فكل نظامٍ يريد أن ينجح ويزدهر ويستقر ويكون تجسيداً لما ينشده، فإن عليه أن يحقق حداً معقولاً من الاعتبارات الاجتماعية.

أما الكتبُ من الرابعِ للتاسعِ[٢] فقد حوَت عرضاً تفصيلياً لعيوبِ ومشكلاتِ مجتمعنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعاصرة مع إهتمام موازٍ بسبلِ العلاجِ يسيرُ

(٢) هذه الكتب هى:
- ما العمل؟ (١٩٨٦).
- الأصنام الأربعة (١٩٨٨).
- ثالوث الدمار (١٩٩٠).
- مصر بين زلزالين (١٩٩١).
- التحول المصيرى (١٩٩٣).
- نظرات فى الواقع المصرى (١٩٩٥).

فى محاذاته اهتمامٌ مماثلٌ بتشخيصِ منطلقاتِ ومنابتِ العيوب والمشكلات - وكان آخر هذه الكتب (نظرات فى الواقعِ المصرى) عبارة عن تجميع لأهم فصول هذه المجموعةِ من المؤلفاتِ.

وفى هذه الكتبِ الستةِ محاولةٌ وإن كان من الصوابِ أن توصف بأنها "إصلاحيةٌ" إلاَّ أنها تكاد تصل إلى نقطةِ التماس بين ما هو (إصلاحى) وما هو (ثورى)، بمعنى أن روحَ هذه المحاولةِ تبتعد كثيراً عن الروح التى شاعت فى واقعنا خلال العقودِ الأخيرةِ الماضيةِ والتى تستعذبُ التغنى بالأمجادِ الماضيةِ والحاليةِ وتغدقُ فى عمليةِ التشدقِ بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، أو بتعبيرٍ آخر تتسمُ بسمةٍ توصف فى اللغة الإنجليزية بلفظٍ بالغ الدلالة ولا أكاد أجد فى المفردات العربية نظيره المطابق تماماً وأعنى لفظ Complacency والذى يعنى رضى صاحبه عن نفسه وعما أنجزَ رضى غيرَ مبررٍ ولا مسوغ. وقد أغضبت هذه الكتاباتُ العديدين لا لسببٍ إلاَّ لكونهم ثمرةً كاملةً لمؤثراتٍ حضارية وثقافية تجعلُ من "النقد" شيئاً ثقيلاً للغاية على النفس

وترى أن النقد الوحيد المقبول نفسياً هو النقد الذى يمسك العصا من المنتصف.

ثم تلت ذلك فترةٌ من التقوقعِ القلمىِ (١٩٩٥/١٩٩٨) كان فيها من العصىّ على هذا القلم -من جهةٍ- أن يقول ما يُرضى الذوقَ العام، لأنه لم يقصد ذلك قط فى حياته. كما كان من العصى عليه من جهةٍ أُخرى- أن يقول "فى ظل مناخ عام سادرٍ فى مدحِ الذاتِ والرضى الكامل عن الإنجازاتِ والتغنى -غير المنقطع- بماضٍ تليدٍ وحاضرٍ مجيدٍ(!!)... أن يقول "كل ما يريد" و"كل ما ينبغى قوله".

وإبأن فترة العصيان تلك على الكتابةِ (أو بالأحرى عن مشاركةِ جوق المنشدين إنشادهم العجيب والغريب والمفتقد لكلِ مبررٍ ومسوغٍ من المنطق والعلم والثقافة والخبرة)، أصبح انشغالى الفكرى الأكبر ليس بمشكلاتنا وسبل علاجها... وإنما بالتساؤل الكبير التالى:

- ما هى عيوبنا الحضارية والثقافية التى سمحت للأمورِ بأن تصل لما وصلت إليه؟ وكنتُ هنا كمن يرفض المنطق

القائل "بأننا متخلفون لإننا كنا مستعمرين لفتراتٍ طويلةٍ"... ولا يفتـأ يرد على ذلك بقوله:"ولماذا كنا مستعمرين؟.. ولماذا كان البعض مُستعمِراً (بكسر الميم الثانية) والبعض مُستعمَراً (بفتح الميم االثانية)".

وكانت نتيجةُ الانشغال بهذه "المعضلة الفكرية" قائمةً بالعديد "من عيوب تفكيرنا المعاصر"، وهى العيوب التى أصبحت -من فرطِ ذيوعِها- تُشكل الجانب السلبى من عقلِنا (المصرى والعربى على السواءِ). إلاَّ أن معرفتى بما يمكن وما لا يمكن لمناهجِنا التفكيريةِ قبوله جعلتنى "أختصر" قائمة العيوب الحضارية والثقافية التى تشوب تفكيرَ قطاعاتٍ واسعةٍ من أبناءِ وبناتِ مجتمعِنا (بما فى ذلك أعداد كبيرة من المتعلمين تعليماً عالياً إلى أبعد الحدود).

فليست الغاية هى "النقد للنقد" أو بالأحرى "النقد للنقض"، وإنما الهدفُ أن أثير عند البعضِ من أبناءِ وبناتِ مجتمعنا التفكير فى هذه المنطقة "شبه المحرمة"، فمن هذا التفكيرِ ينبعُ العلاجُ القمينُ بالبرءِ من هذه العللِ.

والآن فما هو الكتاب الذى بين يدى القارئ؟

يَقول فيلسوف ألمانيا الأشهر عمانوئيل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) "إن النقدَ هو أهمُ أداةٍ بناءٍ عرفها العقلُ الإنسانى": وهى عبارة بالغة العمق، لأنها تعنى - فيما تعنى- أن الإنسان بصفتهِ "غير كامل" ولا يملك أن يَبلغ الكمال، لا يسعُه إلاَّ أن "يتأخر" أو أن "يَتَقدم". والتَقدم، يعنى أن يرتقى، والارتقاء يعنى معرفة النقائص والعيوب ثم التخلى عنها أو عن بعضها. ولا توجد أداة يستطيع الإنسانُ بها ممارسةَ كل ذلك (التقدم عن طريقِ الارتقاءِ عن طريقِ معرفةِ النقائصِ والعيوبِ والتخلى عنها أو عن بعضها) إلاَّ بالنقدِ.

وإذا كان لِي أن أُضيفِ لعبارةِ "كانط" العظيمة شيئاً، فإننى أقول إن النقدَ سواءً اتخذ شكلَ نقدِ الإنسانِ لذاتهِ أو لذويه أو لمجتمعه أو لأمته هو دليلٌ قاطعٌ على عمقِ وشائجِ الصلةِ والإخلاصِ والمحبةِ بين الناقدِ وما يَنْقُدَه.

وفى هذا الكتاب الصغير أمارس ضرباً من النقد الذاتى لطرائق وأساليب تفكيرنا المعاصرة.فرغم أننا شعبٌ يمكن أن يكون ذا شأن كبير على سطح الكرة الأرضية، إلاّ أننا – وبفعل عوامل تاريخية وسياسية واجتماعية وحضارية وثقافية مختلفة – أصبحنا نعانى من مفاهيمٍ عديدةٍ خاطئة. وكل هذه المفاهيم يصح أن توصف بأنها "مفاهيم ثقافية خاطئة". وأعنى، أن ضحالةَ الثقافةِ وفقّرها فى واقعِنا هما اللذان أديا بنا – أو بأعدادٍ كبيرة منا – للتشبعِ بهذه الأفكارِ والمفاهيمِ (الثقافية) الخاطئةِ، ورغم أننى قلت إن النقد الذاتى الذى يحتويه هذا الكتاب إنما هو موجه لأساليبِ تفكيرنا المُعاصرة فى مِصرَ إلاّ أن ذلك ينطبق على أساليب التفكير العربى المعاصرة بشكلٍ شبه كاملٍ، نظراً لإشتراك مِصرَ والعالمِ العربى فى جوٍ ثقافىٍ قد لا يكون متماثلاً تماماً، إلاّ أنه بالقطع شديدُ التشابه والاتسام بملامحٍ ومعالمٍ وحقائقٍ متقاربة. ومن هنا، فقد عنونت الكتاب "نقد العقل العربى" وليس "نقد العقل المصرى".

وأنا لا أزعم أننى أحطت بكل المفاهيمِ الثقافية أو أنماط

التفكير الخاطئة التى شاعت وذاعت فى واقعِنا المصرى (والعربى) المعاصر، وإنما أزعم أننى انتقيت بعضاً منها وسلطت عليه الضوء.

ومن الضرورى أن أذكر هُنا أننى ما شرعت فى كتابةِ فصول هذا الكتاب الصغير إلاَّ وأنا موقن أنه سَيُثير الكثيرَ من ردودِ الفعلِ العاطفية، وهو دليل قاطع على صحةِ الكثيرِ مما يضمه هذا الكتابُ من نقدٍ.

ولكنى كنت - ولا أزال - على ثقةٍ، أن روحَ الإخلاص العميقة القابعة فى وجدان كلِ عبارة من عبارات هذا الكتاب تنضحُ بأن دافعَ وروحَ وغايةَ هذا العملِ هو الأمل العميق فى مستقبل (لهذا الوطن) أكثر إشراقاً وازدهاراً من حاضرِها.

طارق حجّى.

مارينا فى ١٢ يوليو ١٩٩٨.

الفصل الأول

"تقلص السماحة
فى تفكيرنا المعاصر".

"لكم دينكم ولى دين".
{قرآن كريم..}

الإنسانُ - بطبيعتهِ - قابل لأن يَكون ضَيق الصدر ورافضاً (وفى أحيانٍ غير قليلة: "معاديا") لمن يَختلفون عنه اختلافات كبيرة. ومن صور الاختلاف التباين فى الدينِ والعرقِ والمعتقداتِ والعاداتِ والمقدساتِ والاختلافات الحضارية والثقافية بشتى صورِها. وعبر التاريخ، كانت هذه الاختلافاتُ (مع اختلاف المصالح) بمثابةِ الوقود الذى أشعل - مراراً - الحروب والصراعات العديدة التى حشد بها تاريخُ الإنسانِ على الأرضِ.

ومن المؤكد، أن تاريخ الإنسانية قد شَهد تحَولات إيجابية

فى نموِ ظاهرة قبول الإنسان لكونِ هذه ِ الاختلافات من الأمورِ الطبيعيةِ والملازمة لحياةِ البشر على الأرض. بمعنى أن الإنسان أصبح عبر القرون أقل رفضاً وغضباً منْ تلِك الاختلافات وأكثر قبولاً للتعايش معها. ومع تطور الحياة المدنية، نما شعور بأن لوم الآخرين لمجردِ كونهم مُختلفين، هو مَوقف غير إنسانى وقد يَبلغ حد أن يَكون هَمجياً.

ومما لا شَك فيه، أن الحضارة الإسلامية كانت أفضل من الحضاراتِ القديمة الأخرى فى اتسامِها بدرجةِ تَسامح عالية مع "الآخرين". والدَليل القاطع الذى نشير إليه دائماً، هو الفارق بين "المسلمين" و"المسيحيين" خلال العصور الوسطى. فبينما عاش "المسيحيون" و"اليهود" حَياة طيبة فى ظلِ الدولةِ الإسلامية (من العباسيةِ حتى العثمانية) فإن المسلمين قد تَعرضوا فى أسبانيا -بعد خروج العرب- لاضطهاد وتَعذيب بربرى فظ. أما اليهود فقد عاشوا فى "حاراتِ اليهودِ" وكأنهم "أمراض خبيثة" يَخشى المجُتمع على نفسه مما بها من أوبئة فَتاكة.

ومن المُهم للغاية أن نبرز أن الدولة العثمانية التى عاش يهود ومسيحيو فلسطين وسوريا ولبنان والعراق ومصرَ تحت رايتها كان من الميسور لها عملياً أن تَفعل -على الأقل - مِثلما فعلُه المسيحيون بالمسلمين فى الأندلسِ عندما أفل نجم الدولة الإسلامية فى هذا القطرِ.

أما إذا عدنا للعصرِ الحديثِ، فإن التَسامح بمعنى قبول أن الآخرين مُختلفون فى أشياءٍ عديدةٍ منها الدين والعرق والعادات والمقدسات والتقاليد، كان ولا يزال ظاهرة ثقافية فى المقامِ الأولِ. فكلما تَشبع المجُتمع بالتعليمِ والثقافةِ، كلما كان أبناؤه أكثر تَسامحاً مع الآخرين وأكثر قبولاً لفكرةِ أن الاختلاف بين الناس أمرٌ طبيعى ويجب أن نَعيش معه فى هدوءٍ وسكينةٍ.

ورغم يَقينى أن الحَضارة التى تُعرف الآن بالحضارةِ الغربيةِ إتسمت تاريخياً بالتعصبِ العرقى، إلاَّ أن الواقع يُحتم علينا أن نَعترف أن الازدهار الثقافى فى العالمِ الغربىِ قد حوّل أبناء هذه المجتمعات لدرجةٍ أفضل من

التَسامح. ويكفى أن نُلاحظ التَحول الكبير الذى تم خلال نصف القرن الأخير فى الموقف الأوروبى من القضية الفلسطينية. فإسرائيل لم تَعُد تجد اليوم فى أوروبا من التفهمِ والتأييدِ والمساندةِ ما كانت تجَده عندما تَكونت (فى سنةِ ١٩٤٨) لأن الثقافة والوعى جَعلا مُعظم الأوروبيين يرون شرعية الحق الفلسطينى ويرون إسرائيل وهى تكيل فى العديد من الأمور بمكيالين، ولولا الوعى والثقافة لظلت الشعوب الأوروبية سادرة فى غيها الذى كانت عليه منذ قرابة نصف القرن. ولكن هذا القول لا يَنطبق على الولايات المتحدة لاعتبارات لا تخفى عن أحد وأهمها أن مُستوى مَعرفة المواطن الأمريكى بالعالمِ الخارجى هو مُستوى ضَحل بشكلٍ لا يكاد عقل الإنسان أن يَتَصَوره – ناهيك عن كونِ الإنسانِ الأمريكى بَعيداً للغايةِ عن أن يوصف بأنه إنسان مُثقف.

ولكننا عندما نَعود لمنطقتنا من العالمِ، فإننا لا نملك إلاَّ أن نَعترف بحقيقةٍ بالغة الخطورة، وهى أن درجة تَسامحنا قد أخذت فى التقلصِ والضمورِ خلال العقود الأخيرة بشكلٍ

مُذهل. فمنذُ قرابة نصف القرن، كان المُناخ الثقافى العام لدينا مَشحوناً بعددٍ من القيم الإنسانية المُستقرة فى وجداننا بوجه عام وفى وجدان الطبقة التى تمثل قيادة المجتمع فكرياً وثقافياً بوجه خاص، وكان من هذه القيم أن الإختلاف سنةٌ من سُننِ الحياة ومعلم من معالمِ التَواجد الإنسانى على الأرض. وكان هذا الجو الثقافى يَجعلنا أبعد ما نكون عن "الصيغةِ الفكريةِ" التى نمَت خلال السنوات الأخيرة والتى تُقَسم الناس إلى "نحن" و"هم" وفى نفسِ الوقتِ تجَعل "نحن" فى "رصيفِ الصوابِ" أما "هم" ففى "رصيفِ الخطأِ". وهى صيغة أقل ما يُقال عنها إنها تَتَسم بالسماتِ التالية:

* أنها صيغةٌ "غير إنسانية" و"عدوانية" وتُشكل حالة تَضاد فكرى وثقافى كاملة مع حقائق العصر العلمية والثقافية.

* أنها صيغةٌ "غير سلمية"، بمعنى أن مسايرتها حياتياً أمرٌ لا يؤدى لاشتراكنا فى حياةٍ سلمية على الأرض مع الآخرين، إذ أنها صيغة تَقود إلى "المواجهةِ" و"التضادِ" و"الصدامِ" مع الآخرين.

* أنها صيغةُ تُخالف روح السلام والإنسانية العميقة الواردة في أصولِنا الحضاريةِ الدينيةِ الإسلاميةِ والمسيحيةِ على السواءِ.

كنا إذن - منذ قرابة خمسين سنة - نعيش في ظلِ مناخٍ ثقافيٍ يَسمح لِمبدأ التسامح أن يَحكم روحنا العامة. إلاَّ أن واقعنا قد شهد - في سنواتٍ لاحقة - أشكالاً من الفشل، جعلت هذا المُناخ الثقافي العام يتزلزل. ففي صباحِ الخامس من يونيه ١٩٦٧ تجَسد الفشل الكامل لتيار سياسي بُرمته. وخلال السنوات التالية، ظهرت معالم الفشل العام في إدارة حياتنا الاقتصادية. وتبع ذلك، تَشققات كُبرى في واقعنا الإجتماعي. ولما تجَسَدت تلك الأشكال المُختلفة للفشلِ، صار من حق البعض أن يَظُن أنه صاحب "طرح" أفضل. وعندما سَمحت الظروف العامة لأصحاب هذا الطرح بأن يروجوا لطرحِهم الفكري (المُجافي تماماً لروحِ العصر والتمدن والعلم) ظهر بوضوح أن هذا الطرح لا يحمل ذرة من التسامح الفكري، بل أنه التَجسيد الأوضح أمام عيوننا لصيغة "نحن" و"هم" بكل ما تَعنيه من مُغالاة وتَشَدد.

ومن المهم للغاية أن نبدأ عملية التصحيح الثقافى لهذا العيب الخطير والذى أصبح يشوب تفكيرنا المعاصر بالوقوف على حقيقة وكنه المشكلة: فنحن -اليوم- أقل تسامحاً وأكثر تعصباً لمعتقداتنا عن الحد الذى كان يجب أن يكون أقصى مدى نصل إليه فى هذا الصدد. ويجب أن نُدرك أن عدم تَعاملنا - بموضوعية وعلمية - مع هذا العيب من عيوب تفكير معظمنا سوف يؤدى لاتساع الهوة بيننا وبين العالم (لاسيما العالم السائر على طريق التقدم).

كذلك يجب أن نَرى العلاقة الوثيقة بين هذا العيب من تفكيرنا (تَقلص التَسامح) وبين عيب آخر شاع وذاع فى طرائقِ تفكيرنا وهو الإيمان الغريب بنظريةِ المؤامرة. فاجتماع العيبين سيؤدى بنا لعزلةٍ هائلة عن العالم الخارجى وبالذات الأجزاء ذات القيمة والأهمية الاقتصادية والثقافية والاستراتيچية من هذا العالم الخارجى.

ورغم أننا أصحاب حق تاريخى لا يدحض فى عددٍ من المعضلاتِ السياسية الكُبرى فى واقعِنا، إلاَّ أن اتسام تَفكير

معظمنا بهذين العيبين (الإيمان المُطلق بنظريةِ المؤامرةِ وتَقَلص التَسامح) جعل خطوط التفاهم والحوار بيننا وبين القوى المؤثرة فى العالمِ الخارجى إما مقطوعة أو شبه مَقطوعة. كذلك فإن اجتماع العيبين أعطى أعداءنا التاريخيين (فى قضايا ليسوا هم أصحاب الحق الأقوى فيها) مكانة أفضل فى عينِ القوى المؤثرة فى العالمِ الخارجى.

ومن المُؤكد أن تَقَلص التَسامح هو عيب لا يَشوب تَفكيرنا -فقط- فى تعاملاتنا مع الغير أى مع العالم الخارجى، بل أنه عيب يؤثر فى مواقفِنا الداخلية، بمعنى أننا فى حواراتِنا الداخلية أصبحنا محكومين بهذا العيب الكبير بشكلٍ مهول بل أن الآراء المُختلفة داخل كل جبهة أصبحت تتناحر بروحٍ لا تُعبر عن شىء مثل تعبيرها عنْ تَقَلصِ التَسامح.

ومما لا شك فيه أن "مؤسسات التعليم" ثم "وسائل الإعلام" ثم "سائر الجهات الثقافية" هى المنابر ذات القدرة على التعامل العلمى والموضوعى مع هذا العيب الفتاك من عيوبِ تفكير السواد الأعظم فى واقعِنا. وللأسف الشديد أن إحراز

نجاح وتقدم كبيرين فى هذا المجال هو أمرٌ بالغ الصعوبة، إذ أن آثار وثمار برنامج إصلاحى فعّال فى هذا المجال (من خلال المنابر المذكورة) لا يمكن أن تُلمس قبل بضع سنين، فكل الإصلاحات التى تَتم منْ خلالِ مؤسسات التعليم والإعلام والثقافة هى من قبيل الاستثمار طويل الأجل، وإن كان استثماراً مضمون النتيجة ومُجدياً وفعالاً على المدى البعيد، ولا يتوفر أى بديل يُغنينا عنه.

الفصل الثانى

"المغالاة فى مدح الذات".

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم.

....

....

ومن البلية عذل من لا يرعـــوى
عن جهله وخطاب من لا يفهــــم.

"المتنبــــــى.."

يتطرقُ هذا الفصل لعيبٍ آخر من عيوب العقل العربى والتى شاعت فى مناهجِ تفكير معظمنا، وهو (مغالاتنا فى مدحِ الذاتِ) وما يتصل به من قيمٍ اجتماعيةٍ شاعت وذاعت فى واقعنا. فنظرةٌ متأنية لما يذاع فى الناس من مواد إعلامية مكتوبة أو مقروءة تظهر بوضوحٍ أن وسائلَ إعلامنا المختلفة (المرئية والمسموعة والمقروءة) أصبحت لا

تخلو -بصفةٍ يومية- من مدحِ الذاتِ وإطراءِ إنجازاتنا ومزايانا. وعلي المستوي الفردي، فإننا نمارس نفس الشئ بصفةٍ شبه دائمة. وإذا قارنا وسائل إعلامنا الحالية بصحفنا ومجلاتنا منذ نصف قرنٍ لاكتشفنا أن هذه الصفةَ لم تكن متفشيةً فى الماضى كما هى متفشية اليوم. كذلك إذا قارنا هذه الصفة الشائعة عندنا بالأوضاع المماثلة عالمياً، ولا سيما فى الدولِ المتقدمة؛ وجدنا أنفسنا -أيضاً- منفردين بهذا "الكم الهائل" من مدحِ الذاتِ بصفةٍ دائمةٍ.

وقد قمت شخصياً بمراجعةِ مئات الصحف والمجلات المصرية التى صدرت طيلة الأربعينيات؛ فاتضح لى بجلاءٍ تامٍ أننا لم نكن نعرف تلك الصفة منذ قرابة خمسين سنة ولكنها بدأت -على استحياء- منذ نحو ربع القرن ثم استفحلت واستشرت خلال السنوات العشرين الأخيرة، مع ملاحظة أن معدلَ ازديادِها فى سنى العقدِ الأخير كان الأكبر والأشد ظهوراً بشكلٍ تصعب عدم رؤيته.

واليوم، فلا تكاد جريدة أو مجلة تخلو من موضوعٍ أو

مواضيع تتضمن إطراءَ الذات والإشادة بتميّزنا وتفوقنا وإنجازاتنا. وكثيراً ما تكون عبارات إطراء الذات منسوبةً لمصدرٍ خارجى، وهو ما يؤكد اعتقادنا بأن المصدرَ الخارجى يُضفى "مزيداً من القيمةِ" على عباراتِ الإطراءِ المذكورة.

ورغم أن الكثيرَ مما يُنشر فى هذا المجال يبدو بوضوحٍ أنه يثيرُ من التعجبِ أضعافَ ما يُحدثه من مصداقيةٍ، إلا أن "الظاهرة" تبقى ماثلةً أمامنا وهى أننا نفعل (فى هذا المجال) ما لا يفعله (الآخرون)...وأننا بحاجةٍ ماسةٍ لهذا الإطراءِ للذات، لأنه يُعالج عندنا (شيئاً ما).

فما معنى أن صحفَنا لا تكاد تخلو -كل يوم- من صيغةٍ تماثل أو تقترب من واحدةٍ من هذه الصيّغ:

* المجتمعُ الدولى يشيدُ بتجربةِ الإصلاحِ الاقتصادى فى مصرَ.
* البنك الدولى يبرز إنجازاتِ التجربةِ المصريةِ فى التنميةِ الاقتصادية.

* جامعة (......) تقول: الاقتصاد المصرى قوى ويقف على أرضيةٍ قويةٍ.
* مركز (......) للدراسات الاقتصادية يقول: الاقتصاد المصرى لا يمكن أن يتعرض لهزةٍ مثل هزة النمور الآسيوية.
* اليونيسكو يقرر تكرار تجربة مصرَ فى .... على مستوى العالم.

ما معنى ذلك؟ ... ولماذا لا نقرأ مثل هذه "الصيغ" فى أية صحيفة من صحف فرنسا وألمانيا وإنجلترا واليابان والولايات المتحدة؟

وما معنى التكرار شبه اليومى؟

المعنى الحقيقى بالغ السلبية، وهو أننا (رغم معرفتنا بأننا لا نزال فى معظم المجالاتِ على أولِ الطريق) نحتاج لخلقِ عالمٍ خاصٍ من اختراعنا "نرتاحُ فيه". وهذا النمط من السلوك هو (العكس) و (النقيض) و(الضد) لسلوكٍ آخرٍ

إيجابىٍّ وبناءٍ وينبئ بأننا سنخرج حتماً من أتون مشاكلنا العديدة العويصة. النمطُ الإيجابى والبناء من السلوك يحتمُ علينا أن نعترف لأنفسنا (وبوضوحٍ تامٍ) بأن واقعنا عامرٌ بالمشاكلِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ، وأننا (للأسف الشديد) دولةٌ من دول العالم الثالث (وما كان ينبغى لنا أن نكون) وأن أوضاعَنا ترجعُ كلُها للطريقةِ التى أديرت بها حياتنا العامة خلال أكثر من قرنٍ من الزمان (منذ وفاة محمد على فى سنة ١٨٤٩ وحتى الآن).

إن التخلى عن تلك الصيغ والتى نعلم جميعاً أنها خاويةٌ من الجوهرِ والمعنى والتزود بشجاعةِ الاعترافِ بالواقعِ، هو نقطة البداية الفعلية لتقدمٍ حقيقىٍّ على كافةِ المستوياتِ.

ومن المؤكد أن إنجازَ هذه المهمةِ (مهمة إيقافِ طوفان مدح الذات وشحذ الهمم لتكون قادرة على فعل النقيض) لا يمكن أن يتم (على المستوى البعيد) إلا عن طريق غرز قيم إيجابية مختلفة عن طريق برامج التعليم، أما على المدى القصير فإن إنجاز هذه المهمة يبقى "مستحيلاً" ما لم تبدأ هذه العملية من

رأس الهرم لا من سفحه. كذلك فإن للاتجاه الذى أدعو إليه تداعيات لا يمكن تجنبها: فعندما نعترف بسوءِ الأحوالِ .... فإننا نكون على حافةِ السؤالِ الخطير: ولماذا وصلنا لذلك؟ ... ولا جواب إلاَّ لأن بعض القيادات التى تولت أمورنا العامة فى منتصف القرن الماضى لم تحسن الأداء. وأن علينا فى نفسِ الوقتِ أن ندرك أن "حسن الأداء" لا يحدث الآن فى عالمنا عن طريق تبنى أيدولوجيات معينة، ولكنه يحدث كنتيجةٍ توفرِ "كادرٍ تنفيذى" على رأس المجتمع يقتفى أثرَ التجاربِ الناجحة منشغلاً بهذه المهمة "البرجماتية" عن أيةِ إضاعة للوقتِ فى جدلٍ أيدولوچى عقيم لا يزيدنا إلاَّ إمعاناً فى التأخرِ.

وأعتقد أن "المغالاةَ فى مدحِ الذات" ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بمجموعةٍ أخرى من "القيم السلبية" التى شاعت فى حياتنا لأسبابٍ عديدة (قد يكون يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ من أقواها تأثيراً). وأهم هذه القيم هى:

* انفصال (الأقوال) عن (الأفعال) وتحولنا (بدرجة ما)إلى "واقع خطابى" أكثر من أن نكون "واقعاً عملياً". وهى

ظاهرة تعم المنطقة التى ننتمى إليها بشكلٍ بالغ الظهور والقوة. وترجع هذه الظاهرةُ لتواريخٍ بعيدةٍ وعواملٍ ثقافيةٍ ضاربة فى عمقِ هذه التواريخ. فنحن -بلا شك- من أكثر شعوب العالم تغنياً (بالألفاظ) بتاريخنا وأمجادنا الماضية وميزاتنا عن الآخرين. وإذا قارنا مجتمعاتنا (من هذه الزاوية) بمجتمع كالمجتمع اليابانى وجدنا اليابانيين على أعلى درجاتِ الفخرِ بوطنهم دون أن يتخذ هذا الفخرُ شكلَ "كبريات الألفاظ" و "القصائد" و "الأغانى" و "الشعارات".

* ارتكاز الأحكام العامة عند كثيرين على منطق (الحب) أو (الكراهية) وهو ما يقود إلى شيوع الشخصانية (Subjectivity) عوضاً عن "الموضوعية" (Objectivity) ثم يؤدى -أخيراً- إلى انطلاق الأحكام والآراء والمعتقدات من زوايا شخصيةٍ بحتة.

ولاشك أن هاتين النقطتين الأخيرتين بحاجة ماسة لمزيد من الإيضاح وهو ما سيعنى به الفصل القادم من فصول هذا الكتاب.

الفصل الثالث

"ثقافة الكلام الكبير".

مقتلُنا يكمن فى لساننا-
فكم دفعنا غالياً ضريبةَ الكلامْ.
"نزار قباني..."

إذا خسرنا الحربَ - لا غرابةْ.
لأننا ندخلها بكلِ ما يملكه الشرقىُّ من مواهب الخطابةْ.
بالعنتريات التى ما قتلت ذبابةْ.
لأننا ندخلها بمنطق الطبلةِ والربابةْ.
"نزار قباني..."

فى الستينيات كنا نتحدث عن قوتنا واصفين إياها بأكبر قوة فى الشرق الأوسط... ثم جاء صباح الخامس من يونيه ١٩٦٧ ليفتح عيوننا على حقيقة أن ذلك لم يكن إلا مجرد "كلام كبير". وخلال نفس السنوات كنا نتكلم عن عدونا التاريخى بصفته "عصابات يهودية"... ثم جاءت الأحداث لتثبت أن هذا العدو كان شيئاً أخطر بكثير من

"مجرد عصابات"... كان كلامُنا مرة أخرى مجرد "كلام كبير".
وعندما وصفنا رئيس وزراء بريطانيا بأنه (خرع) وهو لفظ عامي مصرى يعنى أنه ليس رجلاً بالمعنى الكامل... وعندما اقترحنا على الولايات المتحدة الأمريكية أن تشرب من البحرين (الأحمر والأبيض)... وعندما تحدثنا عن الصاروخ القاهر وشقيقه الظافر... لم يكن ذلك فى الحقيقة إلا مجرد "كلام كبير". وعندما نستمع الآن للأغانى الوطنية التى أُنتجت فى الستينيات (ورغم إعترافنا بجودة العمل الفنى وروعة الحلم الوطنى والقومى) فإننا نجد عشرات الأمثلة على كلام لم يكن إلا مجرد "كلام كبير". وعندما نترك الستينات ونمر على السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات نجد أن "داء الكلام الكبير" ظل ملازماً لنا بشكل لا يخفى على أحد؛ بل أنه وصل الآن إلى معظم مناطق حياتنا العامة، وأصبح الذين يتكلمون بلغةٍ غير لغته "ثلة من أشباه الغرباء" الذين يعزفون لحناً غريباً يصدمُ الآذان.

فنحن عندما نتحدث عن تاريخنا، لا نستعمل لغة العلم والموضوعية وإنما نغرق فى زخم من الكلام الكبير. وعندما

نتحدث عن واقعنا المعاصر، نحشر مرة أخرى "قوافل الكلام الكبير". وحتى عندما نفوز فى مباراة لكرة القدم، ينهمر "الكلام الكبير"؛ فرغم معرفتنا بأن مستوانا فى هذه اللعبة الرياضية يقع ما بين "المتوسط" و "المتواضع" (على المستوى العالمى) فإننا لا نتردد ولا نتأخر عن استعمال أوصاف مثل (الفراعنة يهزمون....).. ونكون هنا متسقين مع "تيار الكلام الكبير" الذى عم واستفحل فى تفكيرنا خلال نصف القرن الأخير.

وإذا تأملنا الصفحات الأولى بصحفنا ومجلاتنا وجدنا "جيوشاً عارمة من الكلام الكبير"...فكل لقاء هو "لقاء قمة"....وكل قرار هو "قرار تاريخى"..

ومن الواجب أن نقول إننا لا نفتعل ذلك افتعالاً، لأنه أصبح جزءاً من نسيج تفكيرنا، بمعنى أننا نكتب ونتكلم بهذه الكيفية (كيفية الكلام الكبير) لا من (باب التملق) وليس من باب (النفاق) ولا من باب (الكذب المقصود) وإنما نكتب ونتكلم هكذا من باب الاتساق مع "عيب كبير" استقر

في ثقافتنا وعقولنا وأضبح من الطبيعى والمنطقى أن يجد طريقه لخارج رؤوسنا عن طريق ألسنتنا.

ورغم أن البعض (وربما القلة) يلاحظون هذا العيب الخطير من عيوب التفكير، إلا أن معظمهم عندما يتصدرون للحديث يقعون فى المحظور وينساقون مع تيار "الكلام الكبير"، وهو ما يثبت أن هذه السمة قد أضحت متفشية إلى أبعد الحدود وأن "الهواء الثقافى" لنا أصبح متشبعاً بهذه الخصلة إلى أبعد حدود التشبع.

ولعل ضرب الأمثلة يكون أيضاً مفيداً هنا: بعد حادثة الأقصر المفجعة فى خريف عام (١٩٩٧) أذاع التلفزيون المصرى تغطية لماراثون الجرى (العدو) حول أهرام الجيزة، وقامت الكاميرا بمقابلة نحو عشر أشخاص مختلفين.. كرروا نفس الكلام وبنفس الصيغ وقال كل منهم (وكأنه يكرر حديثاً محفوظاً): "أن مصر هى بلد الأمن والأمان.. وأن العالم كله يعرف ذلك... وأن الإرهاب لا يقع على أرض مصر فقط وإنما فى كل مكان بالعالم... وأن الدنيا كلها تتطلع

لزيارة آثارنا التى لا مثيل لها فى العالم".

وكان مصدر دهشتى تصورى أن تطابق الكلام بهذه الكيفية يكاد يكون مستحيلاً بين عشرة أشخاص مختلفين... ولكنها سطوة "الجو الثقافى العام" المشبع إلى أقصى حد بخصلة "الكلام الكبير".

وقد كانت السنوات العشرين التى قضيتها فى واحدة من أكبر المؤسسات الصناعية العالمية فرصة هائلة لكى أكتشف أننا فى هذا المضمار أصبحنا (وأكرر: أصبحنا) مختلفين عن معظم شعوب العالم بشرقه وغربه.

فأبناء الحضارة الغربية (بما فى ذلك أمريكا الشمالية) تواصل نموهم الثقافى فى اتجاه مختلف يقوم على اعتبار "الكلام الكبير" انعكساً مؤكداً لعدم المعرفة. فالمعرفة الإنسانية معقدة ومركبة ولا تسمح بالفرق فى "الكلام الكبير"، بل تأخذنا إلى لغة متوسطة تحاول -قدر الطاقة- أن تعكس حقائق العلم والثقافة.

أما أبناء الحضارة أو الحضارات الأسيوية (مثل اليابان وغيرها) فإن التحفظ كان ولا يزال من سمات هذه الحضارة بشكل واضح، وهو ما يمنع أيضاً استفحال ظاهرة الكلام الكبير.

أما شعوب العالم العربى، فإنها تشترك معنا -بدرجة أو بأخرى- لكون الثقافة العربية قد اتسمت فى مراحل عديدة بسمة "الكلام الكبير". فالشعر العربى عامر بقصائد المدح والهجاء التى تطفح بالكلام الكبير الذى لا يعكس بالضرورة حقائق الواقع والأشياء. بل أن ثقافتنا اعترفت بأن معظم هذا "الكلام الكبير" مجرد "كلام" ولا أساس له من الواقع، عندما نحتنا المقولة المشهورة (أعذب الشعر: أكذبه).

وكان النص القرآنى (كالعادة) رائعاً فى وصفه الشعراء (فى هذه البيئة) عندما وصفهم بأنهم فى كل واد يهيمون (وأنهم يقولون ما لا يفعلون).

وكاتب هذه السطور يرى أن من أوجب واجبات من يهمه تصويب مسار العقل المصرى أن يقوم بإيقاظ هذا العقل

وينهره بشدة أمام ظاهرة اتسامه بعلة الكلام الكبير وحقيقة أنها ظاهرة منبتة الصلة بالواقع وحقائق الأشياء. وأن يُظهر الآثار الهدّامة لهذه الظاهرة التى جعلت البعض يصنفنا (بخبث وأغراض) بأننا حضارة كلامية أو حضارة حنجرية أو (مع التطور العلمى) حضارة ميكروفونية...

ومن المهم للغاية أن نفتح عيون أبناء وبنات هذا الوطن (من خلال برامج التعليم) على حقيقة هذا العيب وما يجره علينا من عواقب وخيمة؛ إذ يجعلنا من جهة مثار تعجب العالم... ويجعلنا من جهة أخرى "سجناء عالم خرافى من صنعنا ولا أساس له فى الواقع".. كما أنه يجعلنا "سجناء الماضى" حيث نصف ماضينا بزخم من الكلام الكبير ثم نهاجر إليه. ولا شك أن "علة الكلام الكبير" تتصل بعلل فكرية أخرى مثل: عدم الموضوعية.. والهجرة للماضى... والمغالاة فى مدح الذات... وضيق الصدر بالنقد. بل أننى لا أبالغ إذ أقول أن "علة الكلام الكبير" تقيم جسوراً للتواصل بين هذه العلل الأخرى.

كذلك، فإنه من الضرورى أن نناقش الصلة بين هذه العلة الفكرية (علة الكلام الكبير) وضيق الهامش الديموقراطى. ففى ظل مناخ ثقافى عام يتسم بداء الكلام الكبير يكون من الصعب تطوير الهامش الديموقراطى كما يكون من السهل نجاح فرق سياسية تملك من "الخطاب الغوغائى" (الديماجوجى) أضعاف ما تملك من "الخطاب الموضوعى". فالذى يقول لنا أن مشروعه الفكرى هو "الحل" إنما يقدم لنا وجبة أخرى ساخنة من وجبات "الكلام الكبير"، فمعضلات الواقع الاقتصادية والاجتماعية أكثر تعقيداً من أن يكون علاجها بشعار عام يستمد جذوره من تربة الكلام الكبير كهذا الشعار.

وما أكثر ما رددت لنفسى وأنا أسمع جولات الحوار العام تتلاطم أمواجها بفعل "الكلام الكبير" ما أكثر ما رددت لنفسى أبياتاً من شعر نزار قبانى يقول فيها (بعبقرية):

- لقد لبسنا قشرة الحضارة
والروح جاهليةْ.

الفصل الرابع

هامش "الموضوعية" المتآكل.

خلال أقل قليلاً من عشر سنوات توليت الموقع التنفيذى الأول فى واحدةٍ من أكبر الشركات العالمية. ورغم أن التنظيم كان جزءاً من المؤسسة التى هى دولية ومتعددة الجنسيات بتاريخها وطبيعتها فقد كان وجود عمليات لهذه المؤسسة العملاقة في مصرَ بمليارات الدولارات يُحتم وجود تعاملات واسعة مع "الواقع المحلى". وكنت خلال ذلك أرى تطبيقاتٍ يوميةً ساطعةً وواضحةً لإختلافِ الحضاراتِ والثقافاتِ. وكان أحد أبرز هذه الاختلافات هو ما درجت على تسميته بشخصانية التفكير المحلى. وأعنى بذلك أن تفكيرَ أعدادٍ كبيرةٍ منا تنطلق من "زوايا شخصية" وتستمر فى ذلك فى عملية الأحكام التى تطلقها والآراء التى تعتقدها ووجهات النظر فى الأشياء والأشخاص التى تطرحها.

وربما يكون من المجدى ضرب مثال واضحٍ - لحالات عديدة مُتكررة، فهذا المثال يشخّص الظاهرة التى أود أن أجسدها أمام عين القارئ:

* خلال تلك السنوات الطويلة أجريت آلاف المقابلات مما يُعرف فى مجالِ الأعمال بالـInterviews أى المقابلات التى يكون الغرضُ منها الحكمَ على شخصٍ بهدفِ الوقوفِ على إمكاناته وقدراته ومواهبه (إن وجدت). وفى ألف (مرة أخرى: ألف) مقابلة مع مصريين حاصلين على درجات علمية عالية فى مجالات مُتعددة بعضها يقع تحت مُسمى العلوم التطبيقية والبعض يقع تحت مُسمى العلوم الاجتماعية والآخر يقع تحت مُسمى الدراسات الإنسانية.

وإلى جانب الهدفِ الأساسى من تلك المقابلات وهو الحكم على "قدرات" الشخص الذى تجرى معه المقابلة كنت معنياً بجوانب أخرى يمكن أن توصف بأنها "ملاحظات حضارية وثقافية" وكنت أدون هذه الملاحظات بإستفاضة لأهمية معظمها. ومن بين هذه الملاحظات أننى فى ألف (١٠٠٠) مقابلة من هذا النوع كنت أطرح أسماء لشخصيات عامة لأسمع وأسجل وأقيّم تعليقات من تجرى معه المقابلة عنها. وقد انتهيت لملاحظة يصعب دحضها، فقد انقسمت تلك

التعليقات إلى نوعين أو طائفتين:

الطائفة الأولى: يمكن أن تُسمى بالتعليقاتِ الشخصية وهى انطباعات كان الأشخاصُ يعبرون عنها بكلمات مثل (طيب).. (متواضع).. (لطيف)... (على خلقٍ رفيع)...(متدين)... (معروف بالسلوك المستقيم).... (مجامل)... (ودود) .... إلى آخر هذه النوعية من الانطباعات. وأحياناً كان التعليقاتُ تأتى أيضاً "شخصية" وإن كانت التعبيرات (والمعانى) على نقيض تلك الكلمات، كأن يُقال (شرير)..(مغرور)... (غير لطيف)... إلى آخر نفس السلسلة من المعانى وإن كانت فى الاتجاهِ المعاكس.

أما الطائفة الثانية: فيمكن أن تُسمى "آراء موضوعية" حيث كان الشخص الذى تجرى معه المقابلة يعبر عن آرائه بكلمات مثل (كفء)... (مثقف).. (يتقن عمله بشكل ملحوظ).. (منتج بشكل كبير).... (له قدرة بارزة على القيادة)... (صاحب قدرة كبيرة على

التحليل)... إلى آخر هذه النوعية من الانطباعات. وأحياناً أيضاً كانت هذه الطائفة الثانية من الآراء تأتى فى صورةٍ ما يخالف أو يمثل عكس هذه الآراء كان يقال (غير كفء)... (محدود الدراية)... (لا يتقن ما يعمله).. (متواضع الإنتاجية)... (لا يملك القدرة على قيادة الآخرين)... إلى آخر هذه السلسلة الثانية من المعانى.

وكانت "الملاحظة الصدمة" أن عددَ الذين كانت تعليقاتهم تندرج ضمن الطائفة الأولى كانوا أكثر من ٩٠٪ من عدد من أجريت معهم هذه المقابلات والذين سجلت نتائج المقابلات معهم (١٠٠٠ مقابلة). ونظراً لأن الأسماء التى كانت تطرح للحوار بشأنها أسماء لشخصياتٍ عامةٍ لا تربطهم صلات خاصة بمن كانت المقابلات تجرى معهم، فإن المعنى الواضح والكبير كان أننا لا نفرق بين دائرة الأهل والأقارب والأصدقاء أى الدائرة الصغيرة الشخصية، ودائرة الحياة العامة. وأننا نستعمل أدوات الحكم على العلاقات الخاصة فى دائرة الحياة العامة. وكان ما يزيد الطينة بلة، أن كون الأشخاص الذين كانت تجرى معهم المقابلات لا يعرفون

-بصفة شخصية- أصحاب الأسماء التى كانت تُطرح من الشخصيات العامة، كان يعنى أن حتى هذه المجموعة من (الانطباعات الشخصية) ليست وليدة (تجربة ذاتية) وإنما هى ما يتكرر قوله وسماعه فى المجتمع. وهى ملاحظة أخرى جديرة بالاهتمام، وإن كانت لا تعنينا هنا كما تعنينا الملاحظة الأساسية وهى اختلاط الخاص بالعام وقيام الأحكام على اعتباراتٍ شخصية وغير عامةٍ وغير موضوعيةٍ.

وأغلب الظن أن هذا الغيب الكبير الشائع فى تفكير العديدين منا إنما يرجع لخصلة أخرى متفشية فى واقعنا قوامها أن نقطةَ البدايةِ فى حكمٍ إنسانٍ على آخر هى نقطةٌ ذاتيةٌ أو شخصيةٌ بمعنى أن البدايةَ تتمثل فى حبٍ (بسبب عوامل شخصية صرف) أو كرهٍ (أيضاً بسبب عوامل شخصية بحتة).

ونظراً لأننى كنت خلال تلك السنوات وإبان إجراء هذه التجارب معنياً بالوقوف على أكثرَ ما يمكننى معرفته من جوانبها، فقد أجريت نفس التجربة على ٣٠٠ أجنبى (من

جنسيات أوروبية غربية) من طوائف مماثلة (وأعنى من حيث التعليم العالى) وكانت النتيجة معاكسة تماماً؛ فأكثر من ٩٠٪ ممن أجريت معهم المقابلات لم يستعملوا إلاَّ تعبيرات موضوعية تتعلق بالعمل والكفاءة والقدرات والمواهب، وأن أقل من ١٠٪ استعملوا تعبيراتٍ شخصيةٍ.

ولا شك أننا لو اتفقنا على وجودِ واستفحالِ انتشارِ هذا العيب بين أعدادٍ كبيرةٍ منا (متعلمين وغير متعلمين) فإن المنطق يُحتمُ أن نرى الأثرَ الهدّام لهذا العيب على مسائل عديدةٍ لعل من أهمها ما يلى:

* الاختيارات للوظائف.
* الترقية.
* المكافآت.
* الترشيحات للمناصب القيادية والعليا فى كل الدوائر.
* الانتخابات بشتى أنواعها ومجالاتها.
* الأحكام على الشخصيات العامة ومتولى الوظائف العليا والقيادية ورموز المجتمع.
* الكتابات الصحفية التى تتناول الشخصيات العامة.

* الكتابات النقدية فى سائر مجالات الإبداع.
* أعمال الأجهزة الثقافية والإعلامية والفنية.

ولعل تصاعد هذه الظاهرة واستفحال استشرائها ووصول جذورها وفروعها لنقاطٍ بعيدة ... لعل ذلك يكون هو التفسير المنطقى لبعض الظواهر التى يجمع معظمُنا على ذيوعِها وشيوعِها فى واقعِنا اليوم مثل:

* المناخ بالغ التوتر الذى تجرى فيه معظم الانتخابات فى معظم المجالات، وما يعقب ذلك من تراشق بالتهم.

* حملات الهجوم الشخصية الفاضحة على العديدِ من الشخصياتِ العامةِ.

* ندرة الاتفاق على عددٍ كبيرٍ من رموز المجتمع. فالاختلاف حول معظم هذه الرموز على أشده ويقع بعضه تحت مسمى "الافتتان الشامل" بينما يقع البعض الآخر تحت مسمى "الاستهجان الكامل".

* شيوع الاعتقاد بأن العلاقاتِ بين الناسِ أصبحت مهترئةً ولا تقارن بما كانت عليه فى الماضى، وذلك أمرٌ طبيعىٌ، لأن الأحكام أصبحت تنطلق من (زاوية الحب) أو (زاوية الكره) وليس من زاوية (الرضى الموضوعى) أو (الرفض الموضوعى).

ومن المؤكد أن من حق البعض أن يُطالع كل هذا التشخيص للداءِ ثم يتساءل: وما العمل؟

والجواب، أن معالجة هذا العيب الكبير من عيوبِ التفكيرِ الشائعة فى واقعِنا اليوم لا يمكن أن تتم بدون وسيلتين؛ أحدهما ذات "بعض الأثر" ولكنه "أثر على المدى القصير والمتوسط" والثانية ذات أثر شبه مطلق، ولكنه من قبيل الاستثمار طويل الأجل أى الذى لا تأتى ثماره إلاَّ بعد سنوات عديدة.

أما وسيلة الأمد القصير فهى ذات ثلاثة أبعاد:

* القدوة العليا فى المجتمع.
* الأنشطة الثقافية.

وسائلِ الإعلام.

فهذه الجهات الثلاثة قادرة على إحداث "بعض التغيير" على المدى القصير والمتوسط إذا وضحت الرؤيةُ وشحذت الهممُ ووظفت القدرات والإمكانات الكبيرة المتاحة لتسليطِ الضوءِ على هذا العيب الكبير من عيوب التفكير الشائعة لدينا اليوم.

أما "العلاج الكامل الشامل" والذى هو "طويل المدى" بمعنى أن آثاره لا تظهر إلاَّ بعد سنوات غير قليلة (وإن كانت أيضاً تبقى موجودة لسنوات عديدة) فهو "التعليم"، فمن المؤكد أن برامج دراسية تنطلق من رؤية واضحة للعيب وإسهاب فى تعريته أمام العيون وشرح كارثة آثاره على العديد من جوانب حياتنا لقادرة على استئصال شأفة هذا العيب وتفريخ أجيال أكثر موضوعية وأقل "شخصانية"..

ورغم أن ما سجلته عن الألف مقابلة من ملاحظات حافل بمئات من القصص والعبر، فإننى أود أن أختم هذا الفصل

بقصة واحدة منها ذات دلالة واضحة وضوح الشمس. ففى مقابلة من هذه المقابلات العديدة تطرق الحديث لاسم أحد الوزراء (وكان بكل الموضوعية من المشهود لهم بالكفاءة والقدرة العالية على التخطيط والتنفيذ) فكان تعليق الشخص الذى كانت تجرى معه المقابلة (أن هذا الوزير من أعظم الوزراء قاطبة فى بلدنا)... ودون ما حاجة لسؤال... أو استفسار استرسل المتحدث يقول (تصور أننى ذهبت لمقابلته، ورغم فارق المكانة فقد أصر على توصيلى للمصعد وانتظر حتى ذهبت)!

وهكذا لم تكن مبررات الحكم مستمدة من كفاءةٍ إداريةٍ أو عبقريةٍ فى التخطيط والتنفيذِ أو نتائجٍ مبهرةٍ لسنوات من العمل الشاق.... وإنما كان المبررُ بسيطاً للغاية: مجرد لمسة شخصية فى التعامل لا علاقة لها على الإطلاق بقدرات ومواهب وإمكانات وإنجازات من كان الحديثُ يدور حوله!

الفصل الخامس

الآخرون:
"معنا"...أم "ضدنا"؟

تجتمع عناصرُ وأبعادُ عددٍ من عيوب التفكير التى انتشرت فى واقعنا فيما يشبه المعادلة الكيميائية لتخرج لنا عيباً (أو عيوباً) إضافية جديدة. فمن اختلاط "تقلص السماحة" و"تآكل هامش الموضوعية" ينبثق عيبٌ آخر جديد هو عجز الكثيرين منا عن رؤية (من ليس معنا) إلا بصفته (ضدنا) أو (علينا). وقد ضاعف من عمق جذور هذا العيب، أن تاريخنا المملوكى الذى ترك أعمق الآثار فى تكوين شخصيتنا قد عرف هذا الأسلوب فى التفكير والحكم على الآخرين على أوسع نطاق. فطيلة القرون التى قبض فيها المماليكُ على زمامِ الأمور فى حياتنا، كان المجتمعُ يرى بوضوحٍ وكل يوم تطبيقاً عملياً على (أن من ليس معنا فهو ضدنا أو علينا) مع توابعِ هذه المقولة وآثارها المترجمة فى مواقفٍ كثيراً ما اتسمت بالعنفِ والقسوةِ والدمِ. وكما يقول أُستاذ جامعى مرموق، فإن علم الاجتماع التاريخى يؤكد أن آثار العهد المملوكى على التفكير المصرى لا تزال

قويةً وحيةً رغم انتهاء دولة المماليك فى مصر بمذبحة القلعة منذ أكثر من مائة وثمانين سنة، (وبالتحديد فى سنة ١٨١١).

وجوهر هذه المسألة، أننا ننشأ فى مناخٍ ثقافىٍّ عام يتسمُ -إلى حد بعيد- بالشخصانية أو الذاتية فى مواجهة الموضوعية، كما يتسم بضيقِ الصدرِ بالنقدِ وعدم الاحترام العميق لكون الآخرين مختلفين وهو ما يحتم أن يرى الكثيرون منا "الآخرين" من منظورِ السؤال النمطى: أهو معى؟.. أم ضدى؟ ويزيد من تأصيلِ حقيقةِ هذا البعد من أبعادِ تفكير الكثيرين منا أن أعداداً كبيرة منا "قرويون" جاءوا حديثاً إلى المدن وهم يحملون فى تكوينهم قانون تأسيسِ الانتماءِ على أرضيةِ الاشتراكِ فى الخلفيةِ المكانيةِ والعائليةِ. وهذه الضفيرة من الأبعاد (ذاتيون لا موضوعيون.... تقلص السماحة تجاه الآخر المختلف.... الضيق بالنقد) هى ما تجعل العملَ الجماعى أبعد ما يكون عن التوفر. فروحُ الفريق تنسفُ نسفاً عندما تضربها هذه الأبعادُ فى ذاتِ الوقت. وهذا الجانب هو أحد أهم أسباب

تأخرنا عن عددٍ من الشعوبِ الآسيوية فى اللحاقِ بركبِ التقدمِ الاقتصادى الحديث، فبينما كانت الحضارةُ الآسيوية (لا سيما فى اليابان والمجتمعات التى انتشرتْ فيها الأقلياتُ الصينية) عاملاً من أقوى عوامل دفع العمل الاقتصادى والصناعى إلى درجاتٍ مرتفعةٍ للغاية، لوجود هذا الاستعداد القوى للعملِ الجماعى، كنا نحن بعيدين إلى حدٍ بعيدٍ جداً عن توفر روح الفريق فى العملِ التى يصعب بدونها تصور أى إنجازٍ كبيرٍ فى العملِ والإنتاج.

وخلال سنوات عديدة شغلت فيها الموقعَ التنفيذى الأول فى مؤسسة اقتصادية عالمية كبرى كنت أرى -كل يوم تقريباً- كيف ينفرط عقدُ أى مجموعةٍ عمل منا بفعلِ غيابِ روحِ الفريقِ والعملِ الجماعى وغلبةِ تأسيسِ العلاقات على أرض (معنا أم ضدنا؟). وفى نفسِ الوقتِ كانت مجموعات العملِ التى ينتمى أفرادُها لخلفياتٍ أوروبيةٍ أو آسيويةٍ تنخرطُ فى العملِ الجماعى دون أية تشققاتٍ فى وحدة الفريق بسببِ العوامل الثقافية التى تلغى أسباب الفرقة وتغلب أسباب الوحدة. ومن الضرورى أن أُبرز أنه فى ظل

ظروف عامة معينة، وعندما تكون قيادة وحدات العمل فى يدِ من هو مشربٌ للغاية بنفسِ الروح ("معنا" أم "علينا"؟) فإن قيمَ تفسخِ روحِ الفريق تتعاظم وتضرب المناخ العام بسهامها من كل جانبٍ، تاركة إيانا أمام ما يشبه حالة استحالة لأن نعمل كفريقٍ واحدٍ متجانس ومتوائم.

الفصل السادس

نحـــن...وآراؤنـــــا.

تناولتُ فى فصلٍ سابقٍ النظرةَ الشائعةَ للآخر إما بوصفِهِ "معنا" أو "علينا". ولاشك عندى أن ذلك ليس سوى عيب ثقافى ذائع وليس سمةً مؤبدةً من سماتِ ثقافتِنا، فكاتبُ هذه السطور لا يؤمن بوجودِ سماتٍ ثقافيةٍ أبديةٍ، وإنما هى مكتسبات أو نتائج أو ثمار طبيعية لعناصرٍ عدةٍ. ومن العيوبِ الثقافيةِ التى تشبه هذا العيب وإن كان عيباً ذا وجود مستقل اعتبارُ العديدين منّا أن آراءهم جزءٌ منهم ومن كيانِهم وبالتالى فإنها جزءٌ من كرامتهم وكبريائهم. وما أعنيه هنا أن أعداداً كبيرة للغايةِ منا ترى أن الإنسانَ وآراؤه يكونان "كلاً واحداً"، بمعنى أن شخصية الإنسان تشمل آرائه وَوجهات نظره.

وقد أظهرت لى تجربةُ التعاملِ الطويلِ مع أبناءِ الحضارةِ الغربيةِ وكذلك مع أبناءٍ الحضارتين الشرقيتين الكبيرتين اليابانية والصينية أن الإنسانَ فى مجتمعاتِ

هذه الحضارات لا يعتبر أن آراءَه جزءٌ منه وبالتالى من كرامتِه وكبريائه بل كنت أرى -طيلة ما يقرب من عشرين سنة من التعاملِ الكثيفِ واللصيقِ مع أبناءِ هذه المجتمعات أن إنسانَ هذه الثقافاتِ يفصلُ بوضوحٍ تامٍ ما بين "ذاته" و"آرائه"، بل وكنت فى مئاتِ الحواراتِ أرى أن إنسانَ هذه الثقافاتِ يبدو أثناء الحوار وكأنه يضع آراءَه على مائدةِ الحوار مع آراء أخرى يضعها على نفسِ المائدةِ غيرُه ثم تتعامل وتتفاعل الآراءُ مع بعضِها بمعزلٍ عن اتصالِها بكينونةِ أصحابِها... فى عمليةٍ يستقلُ فيها الإنسانُ عن الآراءِ المطروحةِ. وبعد تفاعل الحوار، فإن كل إنسان يأخذ من فَوق المائدة "منتجاً" جديداً غير الذى وضعه بيده عليها -أنه نتاجُ تلاقحِ الأفكارِ والآراءِ ووجهاتِ النظرِ بشكلٍ حرٍ وخالٍ من العصبيةِ والانفعالِ الناجمِ عن التصاقِ الآراءِ بأصحابِها وكرامتهم وكبريائهم.

أما عندنا، فالأمرُ مختلفٌ كل الاختلاف إذ أن الآراءَ تكاد تكون لأصحابِها مثل الأعضاءِ والملامحِ فهم من جهةٍ يعتزون بها اعتزازاً يخرج بالعلاقةِ عن إطارِ الموضوعية ويدلف بها

إلى دائرة الذاتيةِ والشخصانيةِ، وهم من جهةٍ أخرى يخلطون ما بين كرامتهم وكبريائهم وأى مساسٍ بتلك الآراء أو محاولة لدحضها أو تفنيدها أو حتى تعديلها. وفى ظل عيوبٍ ثقافيةٍ أخرى، مثل تقلص السماحة وتآكل هامش الموضوعية والنظرة للآخر من منطلق السؤال الكبير: أهو معنا؟ .. أم علينا؟ مع حقائقٍ اجتماعيةٍ أخرى يصعبُ إنكارُها مثل حداثة مفهوم المواطنة وغلبة الانتماء للعائلة والقرية وتفشى السطحية التعليمية والثقافية ونحافة التربية الديمقراطية فى المجتمع من قاعدتِه لقمتِه مروراً بالأسرة والمدرسة والوظيفة والمناخ الثقافى العام... فى ظل كل ذلك معاً، فإن أسبابَ دمجٍ "الذات" مع "الآراء" تتعاظمُ وتجعلنا أمام واحدٍ من أهم عوائق التقدم: فالتقدمُ يتطلب هواءً طلقاً ينمو فيه الحوار ويتطور وتتفاعل فيه الآراءُ ووَجهاتُ النظرِ فى معادلةٍ مستمرةٍ تدفعُ بالعقولِ ودرجاتِ ومكوناتِ الوعى بل والمجتمع بأسره لمقاماتٍ أعلى من مقامات التطور الفكرى والثقافى وهو أساس التقدم الأول. وأكرر هنا أن تطورَ الشق الثقافى كان دائماً سابقاً لتطور الشق العلمى المادى فى كل الحضارات الكبرى، لأن خلقَ المناخِ

الفكرى والثقافى الرحب والخصب والثرى والذى يسمح بطرح الأفكار الجديدة وتلاقح وجهات النظر وتفاعل الرؤى هو الذى يخلق المناخَ الأمثل للتقدم العلمى والتقنى.

وكاتبُ هذه السطور لا يمل من تكرار قوله أن هوميروس ويوروبيدوس وأفلاطون وسقراط وأرستوفان وأرسطوطاليس كانوا مؤسسى المناخ العام الذى ازدهرت فيه العلومُ التطبيقيةُ فى الحضارةِ الإغريقيةِ... وأن الأدباءَ والشعراءَ والمتكلمة (الفلاسفة) كانوا السابقين فى الحضارة العربية وفى ظل المناخ العام الذى أوجدوه جاء العلماءُ من أمثال ابن الهيثم وابن سينا والرازى... ونفس الشئ هو ما حدث فى عصر النهضة إذ جاء الفلاسفة والأدباء والشعراء والفنانون الكبار ليخلقوا المناخ العام لما يسمى الآن بالحضارة الغربية.

ويستحيل أن تحدث تلك الفورة الفكرية والخصوبة الثقافية فى ظل مناخٍ عامٍ يكون الإنسانُ وآراؤه فيه شيئاً واحداً.

الفصل السابع

الإقامة فى الماضى.

أجدادكم إن عظموا وأنتم لم تعظموا
فإن فخركم بهـــم عارٌ عليكم مبرمُ.
"العقاد.."

"علاقتُنا بالماضي" موضوعٌ يمكن أن يفرغ مفكرٌ لدراستِه طيلة حياته دون أن يوفيه حقَه من الدراسةِ المعمقةِ كما ينبغي أن تكون الدراسةُ. لذلك فمن المستحيلِ تقديم تغطية كاملة لهذا الموضوع في فصلٍ مقتضبٍ كهذا الفصل بكتابٍ موجز كهذا الكتاب. ولكن من الممكن تركيز الاهتمام حول عدةِ محاورٍ بشكلٍ يصلح لأن يكون أساساً لمزيدٍ من النظرِ والتفكيرِ.

فمن جهةٍ أولى، فإننا من أكثر شعوبِ العالمِ "فخراً بماضيها"...

ومن جهةٍ ثانية، فإن ملايين المفتخرين بهذا الماضى يكادون أن يكونوا جميعاً من غير العالمين بألف باء هذا الماضى ناهيك عن العلم الواسع والعميق بسائر جوانبه...

ومن جهةٍ ثالثة، فإن هناك "خلطاً دائماً" بين هذا الماضى والحاضر...

أما كوننا من أكثرِ شعوبِ العالم فخراً بماضينا، فأمرٌ لا يحتاج للإثبات، إذ أن مطالعةَ جريدةٍ أو مجلةٍ أو مشاهدةِ أى برنامج تليفزيونى تنبئ بهذا القدر الهائل من الفخرِ بالماضى، فنحن فى حالةِ تذكيرٍ مستمرةٍ للدنيا وللآخرين ولأنفسِنا بأن ماضينا أعظمُ وأمجدُ وأفخمُ من أى ماضٍ لأية أمةٍ أخرى.

ومن المؤكد، أن ماضينا "متميزٌ" و"خاصٌ". ولكن من المؤكد، أن هذا الماضى يضم صفحات بيضاء كما أنه يضم أيضاً صفحاتٍ سوداء. والوقوف على الصفحاتِ البيضاءِ والسوداء فى ماضينا من الأمور التى تستغرق أعماراً كاملة

لأشخاص وقفوا أنفسَهم على دراسةِ ذلك. وبالتالى، فإن حديثنا الذى لا يتوقف عن ماضينا يعيبه -من الناحية الموضوعية- أنه يفترض أن صفحاتِ هذا الماضى كانت كلها بيضاءً ناصعةً- وهذا غير صحيح. كذلك فإن ظاهرةَ التغنى المستمر بالماضى تحتاجُ للتفكير والدراسة. فمن غير الطبيعى ألاَّ يكون هناك توازنٌ بين "الفخر بالماضى" و"الانشغال بصنعِ حاضر ومستقبل مجيدين". ولاشك أن هناك خللاً فى تفكيرنا فى هذه المسألة إذ أن الانشغال بصنع الحاضر والمستقبل يعتبر متواضعاً إلى جانب الإنشغال بالتفاخر بالماضى.

كذلك فإن افتراضنَا (الضمنى) أننا الوحيدون الذين يملكون ماضياً مجيداً هو الآخر أمرٌ مخالفٌ للواقعِ والثابتِ. فكما أن من حقنا أن نفخر بتاريخنا المصرى القديم فإن أبناء اليونان وإيطاليا (أحفاد الإغريق والرومان) هم أيضاً أصحاب حضارة وماضٍ مجيد لا يحق لمن يحترم الحقائق التاريخية أن يستهين بهما.

وفى اعتقادى أن "فقرَ مكوناتِ الواقع" هو ما يدفعنا باستمرار للتغنى والتفاخر بالماضى، كأننا نشعر أنه بدون ذلك الماضى فإن المعادلةَ ستكون مختلةً وفى غير صالحنا. والمنطقى، أن نفتخر بجوانب عديدة من ماضينا افتخاراً متزناً غير مشوبٍ بالحماسةِ الزائدة والتعصب وعدم إعطاء الآخرين حقوقهم، على أن يكون هناك "فخر متوازن" بمعطياتِ الحاضرِ ومكونات المستقبل.

وإذا كان العربُ هم الذين نحتوا المقولة الشهيرة والصائبة والتى تقول: (ليس الفتى من يقول كان أبى، وإنما الفتى من يقول ها أنذا) فإن الأمرَ هنا يكون بغيرِ حاجةٍ منى لمزيد من الشرحِ والتبيانِ.

ومن جهةٍ ثانيةٍ، فإن افتخارَ معظمنا بماضينا يُعطى الإحساس بأننا نعلم الكثير عن هذا الماضى. والحقيقة أن السوادَ الأعظم منا لا يعرف أى شئ (إلا الشعارات العامة) عن ماضينا وتاريخنا. بل أننى أزعم أن الأغلبية العظمى من المتعلمين تعليماً عالياً بمجتمعنا لا يعرفون -مثلاً- أعلام

الأسرة الثامنة عشرة فى تاريخنا الفرعونى القديم ولا يعرفون -مثلاً- الترتيب الزمنى لفراعنة عظماء أمثال سنوسرت وأحمس وتحتمس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى، رغم أن معرفة ذلك لا تعنى أى تضلع فى تاريخنا القديم. بل وأزعم أن معظم المتعلمين تعليماً عالياً فى مصر لا يعرفون الترتيب الزمنى للعهود التالية: العصر الإخشيدى والأيوبى والطولونى والمملوكى فى تاريخنا الوسيط. وأكرر، أن معرفة ذلك لا تسمح فى حد ذاتها بالاعتقاد بوجود أى تضلعٍ فى معرفةِ الموضوعِ محل الحديث، ولكن عدم المعرفة بها يعنى الجهل التام بأبسط المعارف التاريخية وهو ما يجعل الافتخار الحماسى بهذا الماضى (ممن لا يعرفون أى شئ عنه) ظاهرةً عقليةً ونفسيةً تحتاجُ للدراسةِ والتحليلِ.

وتنطبق هذه الحقيقة (حقيقة جهل السواد الأعظم منا بمفردات وعناصر ماضينا) على تياراتٍ فكريةٍ بأكملِها. فما أكثر الذين يسمّون أنفسَهم بأنصار مصر الفرعونية وهم لا يعرفون ألف باء تاريخ هذه الحقبة. وما أكثر الذين يسمون

أنفسهم بالإسلاميين وهم على غير علمٍ بمعظم التاريخ والتراث الذى لا يكتفون بالفخر به، بل ويضفون على عناصره من القداسة ما لا ينبغى أن يُقدس لأن معظمه "عمل وفكر بشرى".

وأذكر هنا حواراً مع شابٍ متحمسٍ للتيارِ الذى يُسمى نفسه بالإسلامى وجدته يُلحن (أى يخطئ فى تحريك الكلمات العربية) وهو يستشهد ببعض النصوص. أذكر أننى قلت له إن الفقهاء المسلمين الأوائل كانوا يعتبرون كل علم أصول الفقه عملاً بشرياً ولا أدل على ذلك من أمرين:

الأول، تعريف الفقهاء لعلم أصول الفقه بأنه "علم استنباط الأحكام العملية من أدلتها الشرعية" وهو تعريف عبقرى ولكنه يثبت "بشرية" هذا العلم. والثانى، كلمة أول وأكبر الفقهاء أبى حنيفة النعمان الشائعة (علمُنا هذا رأى، فمن جاءنا بأفضلَ منه قبلنَاه). ثم ذكرت لذلك المتحمس لما يُسمى بالتيار الإسلامى أن هؤلاء الفقهاء الأوائل قد وضعوا ستة شروط لأهلية الإفتاء، كان أولها العلم باللغة العربية علم العرب الأوائل. ثم قلت له، ونظراً لأنك (ومعظم زملائك

فى الحماس لما يُسمى بالتيار الإسلامى) تلحنون (أى تخطئون فى اللغة العربية) فإنكم -وفق الشرط الأول من شروط الإفتاء- قد فقدتم أهلية إبداء الرأى فى المسائل التى تتعرضون لها.

كل ذلك كان ضمن حديثى عن غرابةِ أن يفخر أناسٌ بماضٍ لا يعلمون عنه شيئاً يُذكر. وهو ما يدل -مرة أخرى- على أننا أمام "ظاهرة عقلية ونفسية" لا علاقة لها -فى الحقيقة- بالماضى الذى يتحمسون له.

وأخيراً، فإن الحياةَ المعاصرة فى مجتمعنا تجعلنا نشاهد -يومياً- عروضاً متكررةً للخلطِ بين هذا الفخر المتحمس بالماضى وبين الفخر الآنى أى الفخر بما نحن عليه الآن.

وهذه ظاهرة مفهومة، لأننا نستشعر فى أعماقنا تلك المفارقة المهولة بين "ماض مجيد" نفخر به وحاضر نبحث فى جوانبه عن أسباب للفخر فلا نكاد نجد إلا أقل القليل؛ فمعظم إنجازات عصرنا المادية والفكرية من أعمالِ الآخرين.

الفصل الثامن

"ضيق الصدر بالنقد".

لأقل قليلاً من عشرين سنة أتاح لى العملُ فى مؤسسةٍ اقتصاديةٍ من أكبرِ ثلاث مؤسسات صناعية فى العالمِ أن أكتشفَ -وبجلاءٍ تامٍ- قدرَ التباين بين ثقافةِ ما يُسمى بالعالمِ الغربى وثقافتنا فيما يتعلق بجزئية مُحددة هى "رحابة الصدر للنقدِ". وخلال النصف الثانى لهذه الفترة -غير القصيرة- أتاح لى تبوأُ الموقع القيادى الأول فى هذه المؤسسة رؤيةً أعمق لهذه الجزئيةِ ولحقيقةِ أن "النقدَ" هو أهمُ أدواتِ الفكرِ التى صنعت المجتمعاتِ الغربيةَ المتقدمةَ، وأن النقدَ يوجه للكبار بنفس قدر توجيهه لمن هم أقل منهم أهمية وموقعاً على خريطةِ الهرمِ الاجتماعى.

لقد أثبتت لى تجربةُ السنوات العشرين أن الهوةَ بين ثقافتِنا وثقافتهم فى هذا المجال شاسعةٌ. فالنقدُ للأشياء والظواهرِ والأفكارِ والأشخاصِ والمسلماتِ هو "معلمٌ" من "معالمِ" الثقافة التى ساهمت فى بناءِ المجتمعاتِ الغربية

المتقدمة. والنقدُ أداةٌ يتعلمها ويكتسبها الإنسانُ منذ فجرِ وعيه وإدراكِه. فهو يتنفس هواءً يسمحُ بالنقدِ -من البدايةِ- لكل ما حوله. فالصغيرُ يتعلم أن كلَ ما يحيطُ به من "أشياء وأشخاص" قابلٌ للنقدِ، كما يتعلم أن يُمارس هذا النقد في ظلِ قبولٍ عامٍ له ودرجةٍ عاليةٍ من الهدوءِ وعدم التوتر والغضب الذين يحدثهم النقدُ في أجواءٍ ثقافيةٍ أخرى.

وتأتى برامجُ التعليمِ لترسخ هذا الإهتمام بالنقدِ. كما أن المناخَ العام (بعناصرِه السياسيةِ والاجتماعيةِ والثقافيةِ) يعملون على ترسيخِ نفسِ الاهتمامِ بالنقدِ كأداةٍ بناءٍ بالغةِ الأهميةِ وكأهمِ وسائلِ الارتقاءِ بكلِ النظمِ والمؤسساتِ والأفكارِ والممارساتِ.

أما ثقافتُنا، فقد واصلت نظرتَها العاطفية الممزوجة بالغضبِ تجاه النقدِ بوجهٍ عامٍ وتجاه نقدِ المسلماتِ (وما أكثرها في واقعِنا) والشخصياتِ التى تتبوأ مواقعَ القيادةِ. بل أننا -في حالاتٍ غير قليلة- ننظر لنقدِ هذه الجهاتِ وكأنه

عملٌ تخريبي وهدّام بل ويصل الشعورُ تجاهه أحياناً لحدِ اعتباره عملاً يقرب من أعمال الخيانة.

وضيقُ الصدرِ بالنقدِ من المسائلِ التي تتغلغل في عقولِ أبناءِ وبناتِ مجتمعنا منذُ الصغر ويترسخ كأحدِ ملامحِ ثقافتنا ثم تأتي سلبياتٌ أُخرى شاعت في تفكيرِنا المعاصر لتجعل المسألةَ بالغة الحدة: فعندما يجتمع ضيقُ الصدر بالنقدِ مع تقلصِ السماحةِ واتسامِ التفكيرِ بالشخصانيةِ (والبعدِ عن الموضوعيةِ) مع النظرةِ الضيقة للآخرين (بصفتِهم إما معنا أو ضدنا) والتعصبِ الشديدِ لأمجادِ ماضينا والميلِ الجارفِ لمدحِ الذاتِ -عندما يجتمع "ضيقُ الصدرِ بالنقدِ" مع هذه المعالم الأخرى الواضحة التي شاعت في جونا الثقافي، فإن حدةَ ودرجةَ الضيقِ بالنقدِ تبلغ أبعدَ مدى وتصبح النظرةُ للنقدِ مشوبةً بالغضبِ والتوترِ والشكِ في النوايا والإحساس بوجود خطر متربص بنا، ولن يكون من العسيرِ علينا إدماج كل ذلك في الاعتقادِ بوجودِ تآمرٍ كاملٍ ضدنا.

ولا أعتقد أننى بحاجةٍ لضربِ أمثلةٍ على اتسامِ جونا الثقافى العام بالضيقِ الشديدِ من النقدِ، فخلال سنى العقود الأخيرة تكررت مئاتُ الحالاتِ النمطيةِ التى جسدت هذه الظاهرة بل وأكدت أن هذه الصفة (ضيق الصدر الشديد بالنقد) قد أصبحت من معالمِ الكثيرين بما فيهم قيادات فكرية وثقافية، فأصبح الجدلُ والحوارُ حولَ مسائلَ فكريةٍ تجسيداً جديداً لدرجةِ ضيقنا من النقدِ وتوترنا وغضبنا منه.

ولنأخذ أمثلة قليلة تكررت وقائع مماثلة لها بأشكالٍ تكاد تكون مضاهية تماماً:

* فالذين يدعون للاحتفالِ بمرورِ قرنين على العلاقاتِ المصريةِ الفرنسيةِ يتبادلون مع الذين يستهجنون هذا الاحتفال أنماطاً من التهمِ وأساليبَ من التجريحِ تُجسد عجزنا عن الاختلافِ والنقدِ بتعقلٍ ورويةٍ.

* والذين يعتقدون أن الحوارَ مع العدو التاريخى هو

السبيل الوحيد للخروجِ من واقعٍ مترعٍ بالجراحِ، يواجهون بطوفانٍ من الكلماتِ والألفاظِ الحادة التى تجردهم من كلِ ميزةٍ وصفةٍ طيبةٍ بما فى ذلك صفة المواطن المحب لوطنِه الحريص على واقعِه ومستقبلِه.

وعشرات... بل مئات الأمثلة التى تؤكد أننا إما أن نتفقَ تماماً وإما أن ننطلق إلى مرحلةِ التراشقِ بأشدِ الكلماتِ حدة وتجريحاً. أما مرحلةُ النقد الهادئ والموضوعى والقائم على أسسٍ عقلانيةٍ، فمرحلة يندر أن نمر بها، لأن مُعظمنا لم ينشأ ولم يتدرب عليها ولم يكتمل وعيه وإدراكه فى جوٍ ثقافيٍ عام يؤمن بجدوى وإيجابيةِ وفعاليةِ النقد. ولا يدل على أننا لا نعترف بالنقدِ (إلاّ عند التشدق بالشعاراتِ) من خلاءِ وسائل إعلامِنا خلال السنوات الثلاثين الأخيرة من مقالٍ أو حديثٍ واحدٍ يتضمن نقداً لرموزِ الحكم السياسى فى مجتمعِنا. فإذا كنا نسلم بوجودِ النقدِ فى حياتِنا العامة، وإذا كنا نسلم أن الذين حكمونا خلال السنوات الأخيرة هم بشرٌ غيرُ معصومين، وإذا كنا نؤمن بأن اختلافَ الرأى لا يُفسد للود قضية، فليدلنا من يقدر على مقالٍ أو حديثٍ واحد نشر

فى مصرَ فى وسائلِ اعلامِنا المرئية أو المسموعة أو المطبوعة ويتضمن نقداً للتوجهات السياسية الأساسية للحكمِ. فإذا لم يوجد كان ذلك أوضحَ دليلٍ على ضيقِ الصدرِ بالنقدِ ضيقاً يجب أن يقلقنا ويجعلنا متحمسين لمعالجةِ هذا الداء من أدواءِ جونا الثقافى العام بكلِ السبلِ التى تسمح بنموِ قبولنا للنقدِ والذى بدونه لا يمكن صنع المستقبلِ المنشودِ.

وهنا فإننى لا أجد عبارة أفضل من عبارةِ الفيلسوف العظيم "كانط" والتى أوردتها فى مقدمةِ هذا الكتاب والتى تقول "أن النقدَ هو أفضلُ أداةٍ بناءٍ عرفها العقلُ البشرى".

الفصل التاسع

الاعتقاد المطلق فى "نظرية المؤامرة".

أسيرُ على نهجٍ يرى الناسُ غيرَه.
لكل امرئٍ فيما يحاولُ مذهبُ.
"أحمد شوقى.."

لكلِ إنسانٍ منشغلٍ بأمورِ الفكرِ ولاسيما ما يَتصل بالعلومِ الاجتماعيةِ وحركةِ وفكرِ المجُتمعاتِ مسائل تكون محلَ اهتمامِه وانشغالِه أكثر من غيرِها. ومن المسائل التى لم تغادر تفكيرى منذ سنواتٍ شيوع الاعتقاد فى عالمِنا العربى وواقعِنا المصرى "بنظريةِ المؤامرة". فمن المؤكد أن هُناك الكَثيرين -بالملايين- فى واقعِنا الذين لا يُساورهم شكٌ فى صحةِ المقولاتِ التاليةِ:

* أن وقائعَ ماضينا القريب وحاضرنا جاءت وفقاً لمخططاتٍ وضعتها قوى كبرى وأن الواقعَ كان فى معظمهِ ترجَمة عملية لهذهِ المخُططات.

* أن هذه القوى التى صاغت تِلك المُخططات والتى سار على دَربِها ماضينا وحاضِرنا هى فى الأغلبِ القوى العالمية العُظمى وبالتحديدِ بريطانيا وفرنسا فى الماضى والولايات المتحدة (وابنتها إسرائيل) فى الأمسِ القريبِ والحاضرِ.

*أن مُخططاتِ هذه القوى موضوعة بشكلٍ تفصيلى وأن الأطرافَ الأقل نصيباً من القوةِ (ونحن من بينها) لم تكن تملك (ولا تمتلك الآن) إلا أن تَنصاع لتيارِ تِلك المُخططاتِ.

* أننا -بناءً على ما سبق- غيرُ مسئولين مسؤليةً كبيرةً "عما حدث"...وبنفسِ الدرجة "عما يحدث"... ويُضيف البعضُ "عما سَوف يَحدث". وتلك نَتيجة مَنطقية - فى رأى واعتقاد الكثيرين لتلك "**المنظومة الفكرية**".

وعندما يُضاف "**العامل الإسرائيلى**" لتلك "النَظرة" تَكون الصورةُ بالغةَ "**الحرارةِ**" و"**الإثارةِ**". وإذا انتقلنا من "العمومياتِ" "للجزئيات" كان من الطبيعى أن

يردد البعضُ - حَسب تلك **"النظرة"** -أن أكبرَ وقائعِ تاريخِنا الحديثِ ما هي إلاَّ نَتائج المخُططاتِ التى وضعتها القوى العظمى... فحرب ١٩٥٦ وانفصال سوريا عن مِصرَ فى سنة ١٩٦١... وحرب اليمن من سنة ١٩٦٢ وكارثة ٥ يونيه ١٩٦٧ وعدم استكمال عملية العبور العظيمة لقناة السويس فى أكتوبر ١٩٧٣ حتى نحرر -عسكرياً- سيناء كلها... وزيارة الرئيس السادات للقدسِ فى نوفمبر ١٩٧٧ وتوقيع اتفاقية "كامب ديڤيد" بين مِصرَ وإسرائيل وسقوط الاتحاد السوڤيتى وانهيار **"هيكل الاشتراكية"** فى كلِ مكان ... وانفراد الولايات المتحدة بدورِ القوى العظمى وأشياء أخرى كثيرة مَثل "النظام العالمى الجديد" و"اتفاقيات الجات" وخلافه... كل ذلك ليس إلاَّ نتائج مباشرة وترجمات عملية لتلك المخُططاتِ التى يعتقد كثيرون منا أنها وُضعَتْ من طرفِ القوى العظمى ليسير التاريخُ وفق مفرادتِها.

ومن الجدير بالاهتمامِ والتحليلِ أن الأطرافَ أو المجموعاتِ التالية تشترك فى هذا المفهومِ بدرجاتٍ مُختلفةٍ:

* فكل من يمكن أن يندرجوا تحت مسمى **"الإسلاميين"** يؤمنون إيماناً صخرياً واضحاً كضوءِ الشمس بصحةِ هذهِ المقولات والتى من مجموعِها تكتمل "نظريةُ المؤامرة" ... وينضوى تحت هذه الرايةِ الإخوانُ المسلمون وغيرهم كالجماعةِ الإسلامية وتنظيم الجهاد والحركات السلفية بل والمعتدلون للغاية من أصحابِ "الطرح الإسلامى" ويوجعنى أن أصف فرقة هى مجرد **"مجموعة سياسية لاغير"** بمصطلح **"الإسلامية"** لأن ذلك يعنى أن "غيرهم" يجب أن يصنف ضمن **"غير الإسلاميين"** أو"**ضد الإسلاميين"**؛ وهو أمر خاطىء تماماً - ولكن ضرورات استعمالِ الشائعِ والذائعِ من "المصطلحاتِ" قد تملى على المرءِ أن يستعمل تسميةً هو أول المعترضين على صوابِ ومعقوليةِ استعمالِها. وإذا كان لابد أن نختار أكبر المؤمنين "**بنظرية المؤامرة**"، فلابد أن نسلم للإسلاميين بهذه الرتبةِ.

* أما كل من كانوا - بشكلٍ أو بآخر تحت اللواء الاشتراكى، من ماركسيين إلى اشتراكيين ومروراً بعشراتِ

التصنيفاتِ الفرعيةِ للتوجهاتِ اليسارية أو الاشتراكية بما فى ذلك الاتجاه الناصرى-فإنهم يؤمنون بنظريةِ المؤامرةِ ولكن بدرجةٍ أقل من "التصخر" إن جازلنا نحت هذا التعبير. فهم إن كانوا يؤمنون بالنظريةِ ككلٍ وبالتالى بالمقولاتِ التى أوردتها فى مستهل هذا المقال ؛ إلاّ أن إيمانهم هذا غير مشوبٍ بما يمكن تسميته بالروحِ الجهاديةِ أو الحربيةِ أو "الضد - صليبية" التى تشوب موقف الإسلاميين فى هذا الصدد . ولاشك أن الاختلافَ فى "صخريةِ" الاعتقاد هنا و"نارية " اليقين و"التهابية" الموقف إنما ترجعُ للروحِ الثيوقراطية (الدينية) للحركاتِ المسماةِ بالإسلاميةِ وفى نفسِ الوقتِ للروحِ الأكثر علمية وتقدماً وعصرية للأفكار الاشتراكية (وإن ثبت أنها كانت كلها خاطئةً وعاجزةً عن تحقيقِ أهدافِها وشعاراتِها).

* وثالثاً (وأخيراً) فإن السوادَ الأعظم من "المواطنين العاديين" فى واقعِنا العربى والمصرى والذين لا ينتمون للفريقِ الإسلامى (سياسياً) أو الفريق الاشتراكى (عقائدياً)، فإن معظمَهم يميلُ ميلاً واضحاً لتبنى "نظرية

المؤامرة والتسليم.-بالتالى- بصوابِ وصحةِ "المقولاتِ" المنبثقةِ عن الإيمانِ بهذه النظريةِ.

ولكن من الضرورى للغايةِ أن نذكر أن أسبابَ إيمانِ كل مجموعةٍ من هذه المجموعاتِ الثلاث الكبرى بنظريةِ المؤامرةِ إنما ينبعُ من مصادرٍ مختلفةٍ:

* فالمجموعةُ الإسلامية (بمختلفِ فرقِها) ترى أن تاريخَ منطقتنا هو تاريخُ الصراعِ بين (الإسلام) و(المسيحية واليهودية) ... وأن الحروبَ الصليبية لا تزال مستمرةً ولكن من خلالِ أشكالٍ مختلفةٍ. وتعطى هذه المجموعةُ للبعدِ اليهودى أهميةً كبرى، فهى تعزو له جل أسباب مشاكلنِا وكوارثِنا.

* أما المجموعةُ الاشتراكية (بالمعنى الواسعِ) فإنها ترى الأمرَ من خلالِ تصورِها المعروفِ للصراعِ بين القوى التى تسميها بالقوةِ الإمبرياليةِ والجانب الآخر والذى يضم الشعوب المقهورة والمستغَلة (بفتح الغين).

* وأما مجموعةُ **المواطنين العاديين**، فإنها كوّنت ميلها هذا للإيمانِ بنظريةِ المؤامرةِ كأثرٍ حتميٍّ إما لسطوةِ اللون الاشتراكى أو لسطوةِ اللون الإسلامى على مواقع غيرِ قليلةٍ من عالمِ الإعلام فى واقِعنا ومن كثرةِ تكرارِ المقولاتِ المنبثقةِ عن نظريةِ المؤامرةِ والتى غَدت وكأنها من المُسَلَّماتِ. وفى المجتمعاتِ التى لا تتسم بمستوى عالٍ من التعليم والثقافة، فإن دورَ الإعلام (بما فى ذلك منبر المسجد) قد يصل إلى حدٍ (غسل العقول) و(تشكيل الوجدان)... ويكفى أن نذكر أن أولَ اسمٍ لوزارة الإعلام فى بعض البلدان كان "وزارة الإرشاد" وهو اعتراف صريح وواضح بالرسالةِ الأساسيةِ وهى "الإرشاد" أى "التوجيه".

والحقيقةِ، أن هذه "المنابع" لإيمان كل مجموعةٍ من المجموعاتِ الثلاث بنظريةِ المؤامرةِ هى "منابعٌ وهميةٌ" ولا سند لها من الواقعِ والتاريخِ والمنطقِ ... فشعوبُ منطقتنا من العالمِ كانت سَوف تلقى نفسَ المسَارِ التاريخى بما فى ذلك استعمار الغرب لها حتى لو كانت منطقتنا من العالم

"مسيحيةً" تماماً. فالغرب لم يُستعمرَ منطقتنا لأننا مسلمون، ولكن لأننا من جهةٍ كنا متخلفين وفى وضعٍ يسمح بأن نُستعمر ... ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن دافعَ الغرب لاستعمارنا كان دافعاً تحركه عواملُ "اقتصاديةٌ" فى المقَام الأولِ و"حضاريةٌ" فى المقامِ الثانى. والعواملُ الحضارية أوسع وأرحب من العواملِ الدينيةِ. وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال لدحضِ هذه الوجهة الساذجة من النظرِ، ولكننا نعتقد أن كثرةَ ووضوحَ القرائنِ تغنى عن الاسترسالِ والإسهابِ : فمن الجلى للغايةِ أن منطقتنا كانت سوف تُستعمرَ حتى لو كانت شعوبُها كلُها مسيحيةً. ومن الغريب، أن الذين يتبنون هذه الوجهة من النظرِ يغيبُ عنهم أن عَلاقةَ شعوبِ المنطقةِ بالدولةِ العثمانيةِ كانت أدنى ما تكون لعلاقةِ الضعيفِ المستعمَر (بفتح الميم الثانية). بالقوى المستعمِر (بكسر الميم الثانية)، رغم أن الطرفين مسلمان (!!!). فقد كانت شعوب منطقتنا خلال القرن الثامن عشر مرتعاً للتأخرِ والتخلف والرجعيةِ رغم أننا كنا (مسلمين) يحتلهم (مسلمون)، بمعنى أن الغربَ (المسيحى) كان لا يزال بعيداً عنا... كذلك فقد كنا عندما ولدت الحركةُ الصهيونية

المعاصرة على يد النمساوى المعروف تيودور هرتزل فى أواخرِ القرنِ التاسع عشر قد قطعنا شوطاً بعيداً فى التخلفِ لأكثرِ من ستةِ قرونٍ لم يكن اليهودُ فيها قادرين على تحريكِ أىِّ حدثٍ تاريخىٍّ.

أما منطقُ المجموعةِ الاشتراكيةِ ففيه الكثيرُ من الصوابِ، دون أن يكون صواباً خالصاً. فمن المؤكد أن "الدافعَ الاقتصادى" هو العاملُ الأول الذى "ساقَ" الغرب فى علاقتهِ التاريخية بنا خلال القرنين الأخيرين. إلاَّ أن الأمرَ - كما سنوضح بعد قليلٍ - كان فى إطارٍ آخرٍ مُختلف تماماً عن إطارِ "المؤامرة".

وأما منطقُ المواطنين العاديين، فإنه وإن كان متهافتاً ولا يصمد أمام التحليلِ والتفنيدِ الدقيقين، إلا أنه مفهومٌ. فمن الطبيعى أن كثرةَ ترديدِ مقولاتٍ معينةٍ على مسامعِ شعوبٍ نصفها من الأميين والنصف الآخر أصحاب نصيبٍ متواضعٍ للغايةِ من التعليمِ والثقافةِ والوعى من شأنهِ أن يخلق انطباعاً بصوابِ مقولاتٍ لا تَستند إلا على "التوهمِ" و"الديماجوجية".

وجوهرُ القضيةِ في اعتقادى أن معظم من تناول "نظرية المؤامرة" لا يعرف إلاّ أقل القليل عن طبيعةِ وحقائقِ وآلياتِ الاقتصادِ الرأسمالى أو الاقتصاد الذى يسمى باقتصادِ السوق أو الاقتصاد الحر؛ فجوهر الاقتصاد الرأسمالى هو "المنافسة". وفكرةُ المَنافسة تعنى -فيما تعنى- أشياءً عديدةً إيجابيةً وصحيةً، ولكنها تعنى أيضاً أشياءً سلبيةً وغير صحيةٍ. ولكن نظراً لأن كلّ البدائلِ الفكريةِ (للرأسمالية أو لاقتصاد السوق) قد باءت بفشلٍ ذريعٍ وأحدثت من الدمارِ والخرابِ لمجتمعاتها ما أحالها لمتحفِ الأفكارِ المنقرضة، فإن الواقعَ يحتمُ علينا ونحن نمعن النظر في حقائق وطبائع الاقتصادِ الحرِ ألاّ يدفعنا الانفعالُ وجموحُه للعودةِ بأى شكلٍ لدوائرِ الأفكارِ الاشتراكية، فقد أحدثت هذه الأفكارُ من الأضرارِ والخسائرِ ما لا يسمح بإعطائها أيةَ فرصةٍ أخرى. والواقع (لا الفلسفة) يؤكد أن كلَ ما هو اشتراكى (فى الفكرِ والتطبيقِ) مآله إما لمتحفِ الأفكار وإما للانقراض التام بفعل ما يسببه من إخفاقٍ وفشلٍ وخسارةٍ. فإذا عدنا للمنافسةِ بوصفها العمود الفقرى للاقتصاد الرأسمالى، كان علينا أن نعى أن "المنافسة" ليست

فقط تلك "الفكرة الجميلة" التى تعنى فوائداً للأفراد، حيثُ تؤدى المنافسة لعملية تجويد مستمرة فى نوعية ومستوى البضائع والخدمات وحيثُ تؤدى فى أحيانٍ كثيرةٍ لخفضِ السعرِ أو التكلفة، وإنما هى - أيضا- صراعٌ شرسٌ بين المنتجين بعضهم البعض: صراع يتجسد فى أشكالٍ عدةٍ.... كالطرد من السوقِ (إن أمكن) أو تهميش دور الآخرين والاستئثار بأكبر حصصٍ من السوقِ أو الأسواقِ. وهذه الطبيعة أو هذا المعلم من معالم النظامِ الاقتصادى الغربى هو الذى يفرزُ ما يبدو للأكثريةِ فى دول العالم غير العريقِ فى الصناعةِ والخدمات الرأسمالية المتقدمة وكأنه "مؤامرةٌ محبوكةٌ".

وهذا الجانب من جوانبِ "عنصر المنافسة" هو ما أود أن أُسلط مزيداً من الضوءِ عليه، لإننا إذا لم نفهمه جيداً وبوضوحٍ تامٍ ونقبل فكرةَ حتميته ونولّد استراتيچيتنا للتعاملِ معه كحقيقةٍ لا تقبل التجاهل من حقائقِ الحياةِ المعاصرةِ، فلن نبلغ أىَّ شيءٍ مما نريد. وأعنى هنا أن المنافسة التى هى من أهم أسس الحياةِ الاقتصاديةِ القائمةِ على

ديناميكيات اقتصادِ السوق هى التى كانت خلال القرونِ الثلاثةِ الأخيرةِ سببَ كلِ المنازعاتِ الداخليةِ فى أوروبا بل وسبب الحروبِ التى كانت الحربان العظميان (حرب ١٩١٤/١٩١٨ وحرب ١٩٣٩/١٩٤٥) من أهم صورِها. ولكن أوروبا التى تطاحنت وتشاحنت طويلاً تطاحناً وتشاحناً داخليين وصلت خلال العقودِ الثلاثةِ الأخيرةِ ليقينٍ بأن فوائدَ عدمِ التشاحن الأوروبى الداخلى أعظمُ من فوائدِ استمرارِ هذا التشاحن الذى لا سبب له إلا "المنافسة". وبذلك خرجت المنافسةُ (فى درجاتها الأعلى) من ملعبها الأوروبى لملاعبٍ أُخرى خارج القارةِ الأوروبية، وإن بقت الساحةُ الأوروبية زاخرةً بأشكالٍ وألوانٍ شتى من المنافسةِ ولكن التى يحكمها قانونُ التعايشِ معاً وقانون الإتفاق على عددٍ من الحدودِ الدنيا.

وحتى تزداد الفكرةُ وضوحاً، فإننى أودُ إبراز حقيقةٍ بسيطةٍ للغايةِ إلاَّ أنها لا تحظى بالوضوحِ أمام الكثيرين، وهى أن النظامَ الاقتصادى القائم على المنافسةِ يحتم أن تكون مصالحُ المنتجِ أو البائعِ الاستراتيجية أن يظل "بائعاً" وأن

يبقى "المشترى" لأطولِ مدةٍ أو دائماً "مشترياً"؛ وألاَّ يَحدث -هنا- تبادل فى المواقع. هذا المفهوم البسيط هو جوهر جانب المنافسة الذى يراه الكثيرون فى عالمِنا كمؤامرةٍ محبوكةٍ- والحقيقة أنه يشبه المؤامرة لحدٍ ما، إلاَّ أنه يختلف عنها تماماً فى الدوافع وقوانين الحركة. وهذا "القانون" من قوانين حركة "الاقتصاد الحر" والمنافسة إنما هو قانون يعمل "داخل" المجتمعات الصناعية المتقدمة، وبالتالى فإن "عمله" خارجها أمرٌ حتمىٌ ومُنتظر ولا مَحيص عنه.

والمعنى هنا أن النظام الاقتصادى السائد فى الدولِ الأكثر تقدماً صناعياً (والآن: تكنولوچياً وخدمياً) يقوم على صراعات لا يمكن تجنبها وقودها المنافسة وتتمثل فى محاولاتٍ لا تنتهى للاستئثار بالأسواقِ أو بأكبرِ حصص ممكنة من الأسواق، وأن ذلك يعنى أن "السمك الكبير" لا يتوقف عن محاولة "أكل السمك الصغير" وأن ذلك التفاعل وجوانبه السلبية (الشرسة) يعمل فى داخل المجتمع الواحد وخارجه (وعندئذٍ يكون أكثر شراسة)، وأن مفردات علوم وممارسات الإدارة العصرية تتضمن العديد من المفاهيم التى

تخدم فى المقام الأول "المنافسة" بجوانبها المختلفة (الإيجابية والسلبية) ... ورغم أننى لا أريد أن أدخل بالقارئ في دقائق علوم الإدارة الحديثة، إلا أن السياق واكتمال التحليل فى هذا المقال يحتمان أن أذكر أن المفاهيم الكبرى التالية من مفاهيم علوم الإدارة الحديثة: إدارة الجودة Quality Management تقنيات التسويق على مستوى العولمة Global Marketing وسرية البيانات Data Confidentiality والزخم الهائل من نظم المحافظة على الصحة المهنية Occupational Health والاعتبارات البيئية Environmental Considerations وعشرات غيرها من مفردات علوم وممارسات الإدارة العصرية إنما تهدف - فى أولوية عالية من أهدافها - إلى أن يكون أصحابها من "السمك الكبير" القادر عن طريق هذه المفاهيم وتطبيقها تطبيقاً ناجحاً إما لأكل السمك الصغير وإما لزيادة حجمه صغراً... ويمكن الآن أن نُضيف لقانون "إن السمك الكبير يأكل السمك الصغير" قانوناً جديداً يسير فى موازاة هذا القانون وهو قانون "إن السمك الكفء السريع يأكل السمك الأقل كفاءة وسرعة"... وقد ظهرت خلال السنوات العشرين

الأخيرة فى عالم المؤسسات الصناعية والخدمية والتكنولوجية والتجارية الكبرى على مستوى العالم الأدلة القاطعة على مولد وتعاظم شأن هذا القانون الجديد. ومن المهم للغاية هنا أن نمُيز بين "ما نحب أن نراه" وما لا وسيلة أمامنا "لكى لا نراه" إلا غش أنفسنا. فهذه القوانين موجودة وسائدة ولم يعد هناك أمل بعد نفوق (وفاة) الاشتراكية أن تستبدل بقوانين تضمن النجاح والوفرة وتتجنب هذه المثالب (عند الذين يرونها كعيوب).

ومن غيرِ الممكنِ أن نتجنب هنا التصريح بأن المثقفين أوسعَ ثقافة عالمية لن يكون بوسعِهم أن يروا بوضوحٍ هذه الحقائق والقوانين وجوانب هذه القوانين المختلفة إذا كانت ثقافتَهم تعنى معرفةً شاملةً بكلِ العلومِ والمعارفِ الإنسانيةِ والاجتماعيةِ دون علوم العصرِ الحديثِ فى مجالاتِ الإدارةِ والتسويقِ والمواردِ البشريةِ وما انبثق عن هذه المسميات الكبرى من عشراتِ المجالاتِ الجديدةِ المتخصصةِ. فالإنسانُ الذى يعرف كلَ ثمارِ الثقافةِ والمعرفةِ الإنسانيةِ من "سقراط" إلى "براتراند رسل" ومروراً بآلافِ الأسماءِ

ومناطق المعرفة الانسانية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية والفلسفية يظل عاجزاً عن رؤية هذه الحقائق وقوانين الحركة وجوانبها المختلفة إذا كانت جعبته الثقافية لم تتسع لتشمل علومَ العصرِ فى مجالاتِ الإدارةِ والتسويقِ والموارد البشريةِ - ويكون الإنسانُ عندئذٍ مثل عالم فيزياء أمضى نصف قرنٍ فى دراسةِ الفيزياء منذُ فجرِ تاريخِ هذا العلمِ خلال نصف القرنِ الأخير، فإنه عندئذ يكون ملماً بمعظمِ تاريخ هذا العلم إلا أن ماالديه يكون مثل متحفٍ للماضى دون أن يصلح بأى شكلٍ للحاضرِ - وللأسف الشديد، فإن عدداً غيرَ قليلٍ من مثقفى العالم الثالث يندرجون ضمن هذا الفريق الذى يعلم أصحابُه الكثيرَ دون أن يمتد علمُهم ليُغطى المناطق الحديثة والتى بدونها يكونون شخصياتٍ متحفيةٍ لا تقدر بأيةِ حال على فهمِ قوانين الحركة المُعاصرة وجوانبها المُختلفة - بل أن هؤلاء لا يكتفون بذلك وإنما يَستمرون فى حوارات طويلة لا يستعملون فيها إلا مفردات ومفاهيم تعيد تأكيد حقيقة أنهم يواصلون العيش فى الماضى وإنهم بنفسِ الدرجةِ غيرُ قادرين على فهمِ ما يحدث" بل أن هذه المفردات والمفاهيم

تصبح أداة إعاقةٍ للمجتمعِ عن ركوبِ وسيلة المواصلات الوحيدة القادرةِ على الوصولِ للأهدافِ المرجوةِ، وأعني الاشتراك في اللعبةِ حسب قواعِدها القائمة لا حسب القواعد المُثلى التي لا وجود لها إلا في خيالِ أصحابِها.

وإذا وصلنا بالتحليلِ لهذهِ النقطةِ المتقدمة، كان من المحتم علينا أن نُلقي بعض الضوء على "الظاهرةِ اليابانيةِ" لما تتصل به من أوثقِ الصلاتِ بهذا التحليل. ففي محاضرةٍ ألقاها كاتبُ هذهِ السطور في طوكيو في ديسمبر ١٩٩٦ قال إن اليابان قد لعبت في حياتهِ الفكرية واحداً من أخطرِ الأدوارِ، إذ أنها كانت أكبر دليلٍ أمامه على أن نظريةَ المؤامرةِ إما أنها "متوهمةٌ" وإما حقيقية، ولكنها ليست بالقيمةِ التي يعتقد الكثيرون أنها تتسم بها. فإذا كانت هناكَ "مؤامراتٌ" فلاشك أن أقصى ما يمكن أن تصل إليه المؤامرةُ هو ما حدث لليابان في سنةِ ١٩٤٥، إذ تكون أبشع وأفظع المؤامرات قد بلغت ذروتها القصوى بإلقاءِ قنبلتين ذريتين على اليابانِ. فالمؤامرة إذا وجِدت فإن هدفها يكون هو "الإضرار بالطرفِ الذي حيكت المؤامرة ضده"، ولاشك أن

ضرب اليابان بقنبلتين ذريتين لا يُجسد الرغبة فى الإضرارِ فقط بل يُجسد قمة تِلك الرغبة.

ومعنى هذا الكلام أننا لو افترضنا وجود مؤامرة ثم افترضنا أن هذه المؤامرة ستبلغ الحد الأقصى وهو محاولة إنزال أكبر الأضرار بالطرفِ الذى تقصده المؤامرة فإن تحقيق الغاية المرجوة من طرفِ الجهةِ المتآمرة لا يمكن حدوثه إلا إذا كان الطرفُ الآخر (الذى توجه المؤامرة ضده) قابلاً ومستعداً لأن ينكسر. فاليابان التى ضُربت بالقنبلتين الذريتين هى اليوم المنافس الاقتصادى الأول للقوى التى كانت تبدو فى سنة ١٩٤٥ وكأنها قد قضت قضاءً مبرماً على اليابان.

يبقى بعد ذلك أهم ما يجب أن يُقال عن نظريةِ المؤامرةِ إذ أن الإيمانَ بها بالكيفيةِ المتفشيةِ إنما يعتبرُ - بلا أدنى شك عندى - نقضاً كاملاً لأسسٍ لا يجب أن نفرط فيها:

* فمن جهةٍ أولى، فإن الإيمانَ بنظريةِ المؤامرةِ بالشكلِ

الذائعِ حالياً يعنى أن "إرادة الفعل" بقدرِ ما توجد بشكلٍ مطلقٍ عند المتآمِر (بكسر الميم الثانية) فأنها تكون مُنعدمةً عند المتآمَر عليه (بفتح الميم الثانية). وهو وضع يَلصق صفات الكفاءةِ والقدرةِ والعزمِ والإرادةِ ومُكنة الإحداث بالطرفِ "المتآمِر" (بكسر الميم الثانية) وفى نفسِ الوقتِ يجرد الطرف المتآمَر عليه (بفتح الميم الثانية) وهو جانبنا نحن من كل تلك الصفات، فيكون "**الفاعل**" هو "المتآمِر" (بكسر الميم الثانية) أما المتآمَر عليه (بفتح الميم الثانية) فيكون "**المفعول به**" دائماً والجهة التى تسيّر وكأنها جمادٌ أعجم.

* ومن جهةٍ ثانية، فإن الإيمانَ بنظريةِ المؤامرةِ بهذهِ الكيفيةِ ينفى عنا (أى عن المتآمر عليهم) صفة الوطنية ويسبغُها أسباغاً كاملاً على الجهةِ (أو الجهاتِ) المتآمرة وبنفس الدرجة.

* ومن جهةٍ ثالثة، فإن هذا الاعتقاد يجعل من المتآمِر كياناً أسطورياً فى مخيلةِ المتآمَر عليه.

* ومن جهة رابعة، فإن هذا الإيمان يحتم ترسيخ الواقع ويفرض السلبية والانهزامية ويعارض كرامة الاعتقاد بأن "الإنسان يصنع واقعه ومستقبله" وأن الأممَ تملك بنفسِ القدرِ أن تصنع واقعها ومُستقبلها.

ويبقى كل ما كتبته عن نظريةِ المؤامرةِ ناقصاً (ومخالفاً لتصوري) إذا فهم القارىء أنني أروج لهذين المفهومين:

* أن "المؤامرة" هي "الصراع" ، وبالتالي فإنني أنفي وجود "صراع دائم" بدوام مسيرة التاريخ الإنساني.

* أو أنني أنفي وجود "مؤامرات" عبر مسار التاريخ الإنساني.

فالواقع أنني أؤمن إيماناً قوياً بأن التاريخ الإنساني هو سلسلة من الصراعات، كما أنني أؤمن بنفس القدر أن واقعنا العالمي المعاصر هو مسرح لصراعات مريرة وكبيرة. ولكنني أؤمن أن "الصراع" مفهوم مختلف عن معنى المؤامرة.

فالصراع يعنى العمل الدؤوب من جانب (أو من جوانب معينة) بهدف استمرار تفوقها أو حتى توسيع دوائر هذا التفوق و ما يصاحبه من مزايا وامتيازات ولكن الصراع يعنى أن هناك "لعبةً لها فى كلِ زمن قواعد" وأن على من يريد لنفسِه مكانة بارزة فوق الأرض أن "يخوض الصراع" بأدواتٍ وقواعدٍ تضمن أطيب النتائج. وهنا فإن المثال اليابانى يَبرز مرةً أخرى كأحد أقوى الأدلة على هذا التشخيص. ومن بديهيات الأمور أن "الصراع" هو لعبة مفتوحة (نسبياً) عن المؤامرة، كما أن قدر الغموض الذى يكتنف "لعبة الصراع" (بل والكثير من المعالم التى تشبه معالم "السحر" و"الشعوذة") هو غموض أقل (نسبياً) مما يكتنف "لعبة الصراع". كذلك، فإن تصوير الأمر على أنه "لعبة الصراع" وليس "مؤامرة عامة محبوكة" تحكم مسار التاريخ، يحفز أصحاب الإرادة والكرامة والهمم على أن يدخلوا اللعبة بنية إحراز نتيجة طيبة، وهو وضع يختلف عن "الروح العامة" التى أفرزها الإيمان المترامى بنظرية المؤامرة العامة، وهى روح تميل الى جانب الشكوى والبكاء والاستسلام والرضى بالنتائج (الوخيمة) سلفاً وليس

التحدى والانخراط فى لعبة الصراع (رغم ضراوتها) بنية بلوغ نتائج كريمة وعظيمة كالتى حققها اليابانيون الذين خاضوا خلال نصف القرن الأخير واحدة من أشرس لعبات الصراع على مستوى التاريخ الإنسانى. كذلك فإننى لم أقصد على الإطلاق أن أقول إن التاريخ خال من المؤامرات. فمن الميسور لأى قارىء واسع الإطلاع على التاريخ أن يرصد العديد من "المؤامرات" المحددة، ولكنى أقول إن التاريخ ، وإن عَرفَ مؤامرات عديدة، فإنه ليس "مؤامرة عامة" وإنما هو صراع دؤوب لا يهدأ ولا مجال فيه للكرامة والظفر لمن دخله مهزوم الروح والوجدان مبلل الخدود بدموع البكاء والشكوى.

وأخيراً، فإننى أجد من اللازم هنا أن أُبرز جانباً هاماً من كوارث الإيمان المستسلم بنظرية المؤامرة العامة وهو الجانب الذى يتعلق بالحكام غير الديمقراطيين (مثل بعض حكام العالم الثالث).

فالحاكم غير الديموقراطى يساهم بأفكاره وأقواله

وأجهزة إعلامه فى ترسيخ الإيمان بالنظرية العامة للمؤامرة، لأنه بذلك يكون قادراً على اخفاء خطاياه وأخطائه وراء الادعاء المستمر بأن "كل هذا الحجم من الفشل والمشاكل والمعاناة" إنما يرجع لعناصر خارجية (على رأسها "المؤامرة العامة") وليس للسبب الأكبر والحقيقى وهو غياب الديمقراطية ووجود حكام على شاكلته (ليسوا هم فى معظم الأحوال من أكثر أبناء المجتمع كفاءة وقدرات ورؤية ونزاهة وثقافة).

أما كاتب هذه السطور، فإنه يؤمن أن "الصراع العالمى" شرس ومضنى وبالغ الصعوبة ولكن الأمم تكون أكثر قدرة على خوضه بنجاح وكرامة إذا كانت مستعدة ومهيأة له، وهى لا تكون كذلك إلاَّ إذا كانت تُقاد قيادة فعَّالة وناجحة وذات رؤية صائبة وعن طريق كوادر تتسم بأعلى درجات الكفاءة والقدرة والنزاهة والثقافة (وأكرر: والثقافة لأنه لا "رؤية" فى اعتقادى لمن لا ثقافة له).

وخلاصةُ وجهة نظرى هنا، أن دعاةَ نظريةِ المؤامرةِ

يتحدثون كوطنيين يحبون أوطانهم واعتقادى الراسخ أنهم وإن كانوا بلا شك وطنيين يشغلهم همّ الوطن العام، إلا أنهم بالطريقة التى يؤمنون بها بنظريةِ المؤامرة العامة وبتداعيات وآثار هذا الإيمان المطلق فإنهم يكونون انهزاميين و"دعاة استسلام وخنوع وخضوع" قبل أن يكونوا "وطنيين" يبكون على الحظ العاثرِ الذى جعلهم فى موضعِ الطرفِ "المتآمَر عليه".

الفصل العاشر

"التيه الثقافي".

(إن العقلَ المصرى قد اتصلَ من جهةٍ بالشطارِ الشرق القريبِ اتصالاً منظماً مؤثراً فى حياته ومتاثراً بها، واتصل من جهةٍ أخرى بالعقل اليونانى منذ عصورِه الاولى).

"طه حسين...

. من الحَقائقِ التى كان يَنبغى أن تكون واضحة، وأن تكون نتائجُها - بنفس الدرجة - واضحة ومتسقة مع مقدماتها، هى أن هويتنا الثقافية تقوم على الحقائقِ التالية:

* أننا -تاريخياً وآنياً- جزءٌ من الثقافةِ العربيةِ الإسلامية.

* أننا -جغرافياً- جزءٌ من ثقافةِ شرقِ البحرِ المتوسط.

* أننا -زمنياً- جزءٌ من العالمِ الحديثِ والذى يقوده "الغربُ"، وإن كانت الثقافةُ الذائعة والشائعة باسم "الثقافةِ الغربيةِ" هى ثقافة ذات بُعدٍ غربىٍّ (لا يُنكر) ولكنها أيضاً ثقافةٌ ذات بعدٍ "إنسانى"، بمعنى أن الكثير من "المحصولِ الثقافى الغربى" ليس غربياً وإنما وفَد من ثقافاتٍ أُخرى سابقة.....

تلك حقائق ما كان لها أن تكون "غائبة" أو "غائمة" وإنما كان من المنطقى أن تكون واضحةً وجليةً، ولكن فى ظلِ انهيارِ المستوياتِ الثقافية وانحسارِ التألق الفكرى والثقافى (كنتيجةٍ لظروفٍ حياتيةٍ طاغيةٍ وعاتيةٍ) فإن الصورةَ أبعدُما تكون عن الوضوحِ، بل إن مُعظم المُهتمين بالشئونِ العامةِ فى واقعنا يعانون من "رؤيةٍ" بالغة الضبابية فى هذا الشأنِ تجعل من هؤلاء أصحاب أفكارٍ ومواقفٍ بالغة الفقر ثقافياً. ولننظر معاً لتلك الحقائق الثلاث الكبرى من منظورِ واقعنا ومفرداتِ وحقائقِ ومواقفِ هذا الواقع.

نحن وثقافتنا العربية:

المفترض ألا يكون هناك إنكار لحقيقةٍ أننا -تاريخياً- جزءٌ من الثقافةِ العربيةِ، ويعنى ذلك أن مثقفينا والشخصيات العامة لدينا يُفترض فيهم أن يكونوا أصحاب إلمام طيبٍ بالثقافةِ العربية. ولكن الواقعَ يؤكد أن ذلك وإن كان ينطبق على البعض إلا أن تعميمه أبعد ما يكون عن الحقيقةِ. إذ أن نظرةً مُتفحصة تُظهر ما يلى من حقائقٍ مؤلمة:

* رغم أن إتقان اللغة العربية هو العمودُ الفقرى للتعاملِ مع دنيا الثقافةِ العربيةِ الإسلاميةِ الثريةِ والرحبةِ، فإن أعداداً كبيرة من مُثقفينا والشخصيات المُهتمة بالشؤونِ العامةِ فى واقعنا تملك محصولاً هزيلاً من اللغة العربية، بل وأكاد أجزم أن بعضهم لا يملك أن يتكلم بلغةٍ عربيةٍ سليمة لمدةٍ وجيزةٍ لا تتعدى الدقائق القليلة. ومن المؤكد أن أىَّ مُراقبٍ مُنصفٍ لحياتنا العامة سيُلاحظ بوضوحٍ أن قدرةَ الشخصياتِ العامةِ على الحديثِ والكتابةِ بلغةٍ عربيةٍ سليمةٍ قد واصلت الانهيار والانحدار خلال السنوات الأربعين الأخيرة حتى بلغت اليوم ما هى عليه

من وضعٍ مؤسفٍ (بل وأراه كثيراً كوضعٍ "مهين" لكبريائنا الوطنى والقومى).

* أن عدداً من مثقفينا والشخصيات المهتمة بالشؤون العامة لدينا لا يكاد يعرف شيئاً عما أنتجته الثقافةُ العربية من "جبالٍ هائلةٍ" من الإنتاجِ. فمُعظم هؤلاء يكاد يكون مطلق عدم المعرفة بالشعر العربى وهو أهم أشكال الإبداع الأدبى العربى. وبإستثناءِ معرفةٍ سطحيةٍ ببعضِ الأسماء كأسماءِ عنترة وإمرئ القيس وجرير والفرزدق وبشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى العلاء، فإن معرفة هذه الشريحة العليا من مجتمعنا بشعر بعض أو كل هؤلاء (وغيرهم) تَكاد تَكون مُنعدمةً. وقل نفس الشئ على معرفةِ مُعظم مثقفينا والشخصيات العامة لدينا بالنثر العربى، فمُعظم هؤلاء لم يَقرأ شيئاً يُذكر لابن المقفع والجاحظ والجرجانى وأبى هلال العسكرى وإبن قتيبة وإبن عبد ربه الأندلسى وياقوت الحموى والمبرد وأبى على القالى (وعشرات غيرهم).

أما إذا وصلنا لعالمِ الفكر وكان قصدنا مناطق كفكرٍ

المعتزلة والأشاعرة وسائر المذاهب الفكرية (والتى تعرف بالفرق عند المتكلمة أى أهل علم الكلام -أى الفكر والفلسفة) بما فى ذلك الأسماء العظيمة لرؤوس من أجّل رؤوس الفكر على مستوى التاريخ أمثال ابن رشد وأبى حيان التوحيدى والغزالى والفارابى والرازى وإبن خلدون (وعشرات غيرهم) فإن عدمَ المعرفةِ تَبلغ مَداها الأقصى.

* أن غير قليلين من المتحمسين للثقافة العربية هُم أصحاب مُطالعاتٍ وقراءاتٍ ومعرفة متواضعة بأمهات الكتب العربية والإسلامية مما أدى بهم للخلطِ بين ما هو "مُقدس" (لأنه جزء من الدين) وما كان ينبغى أن يَبقى خارج دائرة القداسة، (لأنه عمل بَشرى مَحض)، إذ تُضفى القَداسة على الكثير من المسائل التى لا علاقة لها بالقداسةِ لأنها -كما ذكرت- من عملِ الإنسان. وعلى سبيل المثال، فإن كثيرين من هؤلاء لا يعرفون الفارق بين (الشريعة الإسلامية) و(الفقه الإسلامى). بل أن كثيرين منهم يخلطون فى معظمِ ما يقولون ويكتبون بين

الدائرتين، مع ما يجرنا إليه ذلك من نتائجٍ وخيمةٍ وخطيرةٍ. فمعظم الآراء والأفكار والمفاهيم التى يُرددُها الكثيرون على أساسِ أنها ضمن (الشريعة الإسلامية) هى فى الحقيقةِ من أفكارٍ ومفاهيمٍ (الفقه الإسلامى). والذى لا يَعرفه مُعظم هؤلاء أن الفقه الإسلامى "عملٌ بشرىٌ" قابل للنقدِ والنقضِ والتطويرِ. ويرجع علمُ أصول الفقه لأحدِ أكبرِ علم وأعظم العقول فى تاريخنا وهو الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان الذى يُعد أول الفقهاء الكبار. وهذا الرجل العظيم صاحب الفكر المُستنير هو الذى قال عن أصول الفقه، "علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأفضل منه قبلناه". وهو تعبير بالغ الوضوح. وأبو حنيفة أيضاً هو الذى يرفض إضفاء القداسة على أحد (من غير الرُسل والأنبياء عليهم صلوات الله) عندما يقول عن التابعين (أى الجيل التالى للصحابة) "إذا كان التابعى رجلاً، فأنا رجل".

ورغم أن الإمام مالك ليس كمثل أبى حنيفة فيما يتيحه لنفسه من حرية الفكر والتصرف فهو أيضاً القائل لكل من

يدلو بدلوه فى المسائل الفقهية: "ما منا إلا من يخطئ ويرد عليه".

ومع ذلك، فإن الخلط بين الدائرتين عندنا على أوسعِ نطاق بل وبين العديد من المتخصصين، وهو خلط شكّل (ولا يزال) قيداً على الفكرِ المُستنيرِ.

ورغم هذهِ الحقائق الجلية، والتى تَدل على أن أعداداً كبيرة من مثقفينا... لا تعرف شيئاً عن ثقافتنا العربية، فإن البعض من هؤلاءِ لا يَتورع عن تنصيبِ نَفسه مُدافعاً (بعاطفية متأججة وانفعال عنفوانى) عن ثقافتنا العربية التى هو أبعد ما يكون عن معرفتها، لأنه -ببساطة- لم يقم بالجهدِ الواجبِ ويُطالع الثمار العديدة لهذهِ الثقافة فى مجالاتِ الشعرِ والنثرِ والفكرِ...

وإذا كان أحدُ روادِ الأدبِ العربى البارزين قد قال فى مقدمةِ أحدِ كتبِه: "إن من لا يعرف شيئاً لا يملك حق الحكم عليه"، فإننا لا نملك إلا أن نَقول ان مُعظم المتحمسين عاطفياً

لثقافتنا العربية يفتقدون تماماً لأهلية الدفاع عن هذهِ الثقافة العظيمة، لأن من لا يَعرف شيئاً لا يَحق له الحكم عليه ناهيك عن الدفاعِ عنه.

ولهؤلاء نَقول: إذا كُنتم فى شَبابكم لم تُطالعوا عشرات الدواوين الشعرية العربية ومئات الآثار العربية الأخرى فى مجالاتِ الأدبِ والفلسفةِ (الكلام) فمن أين تَستمدون الحق فى الدفاعِ عن ثقافةٍ لم تأخُذوها مأخَذ الجد الكافى عندما لم تعكفوا على الاطلاعِ على آثارها العظيمة؟

وخلاصة القول هنا، أننا عندما نَقف أمام مُعظم المتحمسين للثقافةِ العربيةِ فإننا نَقف أمام مُتعصبين عن غيرِ علم. أما الذين عرفوا هذه الثقافة حق المعرفة وطالعوا المئات والآلاف من آثارها، فهم وحدهم الذين يحق لهم الفَخر بها والدفاع عنها. وحتى أكون مُحدداً للغاية، فإننى أقول إن رجلاً مِثل الأديب العظيم أحمد أمين صاحب موسوعة "فجر الإسلام" و"ضُحى الإسلام" و"ظُهر الإسلام" و"يوم الإسلام" يمَلك أن يَحكم على الثقافةِ العربيةِ، ويَملك أن يعجب

ويَفتَخر بها، لأنه أحاط بثِمارها العَديدة وعَرف أنها ثقافة تَستَحق أن تُبَجل وتُعظم، فمما لا شك فيه أن من حق العرب والمسلمين أن يفتخروا بكل الموضوعية - بما كان لأجدادهم من نصيب وافر فى إثراء الفكر والثقافة الإنسانية. فى الشعر العربى وهذه منطقة شاسعة من مناطق الإبداع العربى. وعلم أصول الفقه علم لا نظير له فى الفكر الدينى لأى أمة أخرى، بلغ فيه التميز العقلى شأواً بعيداً. أما النثر العربى فقد سبق نثر الحضارات العظمى الأخرى (باستثناء النثر الإغريقى) ولا أدل على ذلك من الأعمال العظيمة العديدة التى قد تكون رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى مجرد نموذج لها، فقد أبدع أبو العلاء فى هذه الرسالة شكلاً لم تعرفه ثقافة أخرى، بل أن العديد من الدارسين يربطون بين هذا العمل الأدبى الفذ وبين الكوميديا الإلهية لأليجيرى دانتى التى كتبت بعد قرون من رسالة الغفران. كذلك فإن الكتابات الفكرية لابن رشد والرازى والفارابى تقف كصروح عقلية شامخة تشهد لهذه الحضارة بالسبق والإبداع. كذلك فإن مساهمة ابن خلدون فى مجالين هامين من مجالات الفكر هما تنظير التاريخ ووضع اللبنة الأولى

فيما سمى بعد إذ بعلم الاجتماع هى أيضاً مساهمة يحق لنا ولثقافتنا الفخر بها بلا حد.

نحن وثقافة البحر المتوسط:

خلال العقود الأربعة الأولى من القرنِ العشرين كان المُجتمع المصرى شديدَ الصلةِ بالدوائرِ المُحيطة بمِصرَ جغرافياً وأعنى مَنطقة شرق البحر المتوسط. وخلال هذه الفترة كان من الواضحِ أن مِصرَ وإن كانت تَنتمى -تاريخياً- للثقافةِ العربيةِ والإسلاميةِ إلا أنها فى نفسِ الوقتِ ذات بُعد قوى يَنتمى لحضارةِ شرق البحر المتوسط وما يَعكسه ذَلك ثقافياً على مِصرَ والمصريين. وكان العَقلُ المصرى على درجةٍ من الوضوحِ تَسمح له أن يرى الحكمةَ الواضحة فى كلماتِ الدكتور طه حسين فى كتابهِ "مُستقبل الثقافة فى مِصرَ" الذى صَدَر فى سنةِ ١٩٣٨، عندما أبرز أهميةَ البعدِ الحضارى والثقافى الناجم عن كوننا منْ دول البحر المتوسط كما أننا منْ الدولِ العربية الإسلامية الأفريقية. وتأتى أهميةُ هذا البعد من حقيقةِ أن مُعظم الحضاراتِ القديمة كانت حَضاراتٍ مُطلة على البحر

المتوسط (الحضارة المصرية... الحضارة الفينيقية... الحضارة الإغريقية... الحضارة الرومانية). وأن إنكار هذا البُعد (لحسابِ أبعاد أخرى) هو عملية غير علميةٌ ومُخالفة لحقائق التاريخ والجغرافيا التى لا يمكن مخالفتها.

وإذا كان العقلُ المصرى قد اتسم دائماً -عبر التاريخ- بصفةٍ تسامحٍ قويةٍ، هى أهم مزايا الشخصيةِ المصريةِ، فأنها سِمةٌ أو صفةٌ تتصل بهذا البُعد (بعد البحر المتوسط) أكثر من اتصالها بأبعادنا الأخرى.

وأنا هُنا لا أتكلم عنْ (الشرق أوسطية) التى شاع الحديثُ عنها خلال السنوات القليلة الماضية، لأنها فى اعتقادى من المفاهيمِ التى "طُبخت على عجلٍ" فى "مَطبخ السياسة" وليس فى "مطبخ التاريخ"، وإنما أتكلم عن حقيقةٍ أننا أصحابُ بُعدٍ ثقافيٍّ واضحٍ يَستمد جذورَه من موقعِنا الجغرافى.

ومن المؤكد، أن الهزالَ الثقافى الذى اعترانا خلال

السنوات الأخيرة وما واكب ذلك من جموحٍ بعض التيارات الفكرية وعدم إعتزازها إلا ببعدٍ واحدٍ من أبعادنا الثقافية، قد لعب دوراً كبيراً فى إضعافِ هذا البُعد من أبعادنا الثقافية، رغم عظيم أهميته كجسرٍ بيننا وبين العالمِ كلهِ، وكمصدرٍ من مصادر مَلمحٍ منْ أهم ملامحنا الحضارية وأعنى "التَسامح".

نحن وثقافة العصر:

من أكثر المسائل الفكرية والثقافية التى حيرتْنى ولسنواتٍ طويلة والتى كلما شُغلتُ بها فكرياً وظننت أننى وصلت فيها إلى يقينٍ قاطعٍ جاءت محاوراتٌ ولقاءاتٌ وحواراتٌ وقراءاتٌ ووجهاتُ نظرٍ شخصية لتثبت لى أننى لم أبلغ فيها بعد حد اليقين وأعنى علاقة العقل العربى بالثقافة التى تُعرف بالثقافة الغربية وما أكثرَ ما حيرتنى الطريقةُ التى نتعامل بها مع هذا الموضوع. فهناك كثيرون فى واقعنا يظنونَ أن الإيمانَ والاعتدادَ والإعتزاز بثقافتنا الخاصة وهى الثقافة العربية إنما يعنى أن نكونَ فى موقفِ المعاداةِ أو التحفز أو التوتر تجاه الثقافة الغربية. والبعضُ

الآخر يرى أن العصرية ومسايرة الزمن يعنيان معرفة الثقافة الغربية والتفاخر بها؛ دون اكتراث بالثقافة العربية الإسلامية أو الإسلامية العربية.

وقد لاحظتُ فى مُعظَمِ الحالات أن الذين يقولون بأن علينا أن نعتز بثقافتنا الخاصة يضمون أعداداً كبيرة ممن أُتيحَ لهم أن يعرفوا بعضَ الأشياء عن الثقافة العربية دون أن يُتاح لهم معرفة القدر الكافى عن الحضارة الغربية. بل وحيرنى كثيراً أن بعضَ هؤلاء "المعتزين" لا يعرف إلا أقل القليل عن ثقافتنا.

نحن إذن بصدد فريقٍ يعتز ويفتخر بثقافتنا العربية وهو يعرف القليل عنها ولا يعرف تقريباً أى شىء عن الثقافة الغربية، كما أننا بصددِ فريق ثان يعتز بثقافتنا العربية ولا يكاد يعرفُ شيئاً عنها، وهو فى نفس الوقت لا يعرفُ شيئاً عن الثقافة الغربية، وكان الفريقُ الثانى يذهلنى كثيراً لأنه كان يشبه أمامى رجلاً يعتز بقبيلته اعتزازاً يقوم على العصبية لا غير. أما الفريقُ الأول فكنت

أفهم موقفه لأنه أُتيحَ له القليل من المعرفة عن الثقافة العربية ولم تُتَح له معرفة وافية بالثقافة الغربية فكان من الطبيعى أن يتخذ موقفاً فكرياً هو أيضاً أقرب ما يكون للموقفِ الوجدانى العاطفى عن الموقف الفكرى.

وكانت حيرتى تمتد لدائرةٍ ثالثة من دوائر الحيرة عندما كُنتُ أخوضُ فى حواراتٍ طويلة مع فريق ثالث مختلف تماماً إذ أنه يزدرى الثقافة العربية ويُعجب كل الإعجاب بالثقافة الغربية وهؤلاء كانوا ينقسمون أيضاً إلى فريقين، فريق لا يعرف إلا أقل القليل عن الثقافة الغربية. فى نفس الوقت لا يعرفُ شيئاً عن ثقافتنا العربيِّة، وفريق رغم ولعه الشديد بالحضارة الغربية فإنه لا يعرف عن الثقافة الغربية شيئاً يُذكر ناهيك عن عدم معرفته شيئاً يُذكر عن الثقافة العربية. وفى سنواتِ التفكير والحيرة بصدد هذه المسألة وجدتُ أننى لا أملكُ إلا التعجب، وأنا أرقبُ هذه المجموعاتِ الأربعة.

وكما ذكرت، فقد حيرتنى هذه المجموعات الأربعة وأذهلنى موقفُ كلٍ منها وأذهلنى موقفُ أفرادها كما

أضنانى الحوارُ معها لأنه حوار يشبه ما يسميه العربُ بحوار الطرشان، لأنك تتكلم مع أى فردٍ من أى مجموعةٍ من هذه المجموعات فيردُ عليكَ رداً ينبىء بأنه يتكلم كلاماً ما هو إلا صحيفة اتهام كانت جاهزة لديه من البداية وهى صحيفةُ اتهام تقومُ على التعصبِ والتشددِ والتحيز الوجدانى والعاطفى، ولا تقوم على فهمٍ ودرايةٍ واسعة وثقافةٍ عميقةٍ أو عريضة. ولا شك عندى اليوم بعد سنواتٍ طويلة من الاهتمام بهذا الموضوع أن معظمَ الأفرادِ فى مجتمعنا المصرى والعربى يندرجون تحت واحدة من هذه الفئات الأربعة.

ولكن هناك أيضاً فئة خامسة تختلفُ اختلافاً كبيراً عن الفئات الأربعة التي ذكرتها ولكنها فئة لا تضمُ إلا أعداداً صغيرة للغاية، إنها الفئة التى يؤمنُ أفرادُها بأن الثقافة العربية كانت كنزاً كبيراً ومصدراً يجعلنا أصحاب حقٍ فى أن نفتخرَ بها. وأفراد هذه الفئة يعرفون عن هذه الثقافة الكثير، فقد قرأوا عيون إبداعات هذه الثقافة منذُ ازدهرت بعد أقل قليلً من مائةٍ سنة على ظهورِ نورِ الإسلام، ثم إرتفع نجمُها فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين

حتى بلغَ آفاقاً بعيدة من آفاقِ التألق . هؤلاء يعرفون عن الشعر العربى الكثير ويدركون قيمة ما توصل إليه الفكر العربى من أبعاد رائعة من التأنقِ والتألقِ والعبقريةِ تجلَّت فى إبداعاتِ فكرِ المُعتزلة، وفى ما بلغه فقهاء المسلمين من آفاق بعيدة من الدقة الفكرية فى علمِ أصولِ الفقه.

إن أفراد هذه المجموعةِ القليلة يتيهون إعجاباً بفكرِ ابن رشد وابن سينا وابن خلدون كما يفتخرونَ بعبقرياتٍ شعرية مثل أبى نواس والمتنبى وأبى العلاء المعرى. وبعبقرياتٍ فى النثرِ العربى مثل ابن المقفع والجاحظ. وإذا تذكروا الشأو البعيد الذى بلغه علامةٌ مثل الرازى شعروا بدرجةٍ رفيعةٍ من الزهو والمجدِ. إذن أفراد هذه الفئة الخامسة مطلعون بعمقٍ على الثقافة العربية وهم يفتخرون بما يعرفون، ولكنهم أيضاً يدركون أن الثقافة العربية هى عمل إنسانى ولا يضفونَ عليها القداسة وإنما يكتفون بإضفاء هذه القداسة على القرآن الكريم.

إن أفراد هذه المجموعة الخامسة وهم أيضاً يعرفون أن القرآن الكريم أعلى من أن يكون مجموعة من القواعد

الدستورية أو مجموعة قواعد قانونية مدنية وجنائية، فهو النص الإلهى الذى نزل لينظم أهم علاقة فى الوجود وهى علاقة الخالقِ بالمخلوق ثم لينظم علاقة المخلوق بنفسهِ عن طريق مجموعةٍ سامية من المبادىء الكلية التى لو استلهمها الإنسانُ فى أفكارِه ونظمِه وتشريعاته وقوانينه لوفر لنفسهِ ولبنى الإنسان على الأرض أفضل النظم. وأفرادُ هذه المجموعة أيضاً يعرفون عن الثقافةِ الغربية الكثير فهم غطوا مساحاتٍ واسعة من مناطقِ الثقافة الغربية بل ومن منابعها القديمة مثل الثقافة اليونانية والرومانية وثقافة عصر النهضة أو الرينيسانس. أما ثقافات الحضارة الغربية الحديثة فقد أحاطوا بها إحاطةً جيدةً وخاضوا فى معظم فروعها كالأدبِ والفنون والتاريخ وعلوم السياسةِ والإجتماع والاقتصاد وعلوم الفلسفة وعلم النفس كما توسعوا فى الاطلاع على موجات العلوم الحديثة المتصلة بحركة الاقتصاد المعاصر. وأفرادُ هذه المجموعة وإن كانوا يعجبون بالكثيرِ من إنجازاتِ الحضارة الغربية إلا أنهم لا يصلون إلى حد الافتتان والتقديس لأنهم يعلمون أن الحضارة الغربية حضارة إنسانية لها ما لها وعليها ما عليها، وإن كانت

صاحبة إنجازات عظمى مثل خلقِ نظامِ عملٍ مُنتج وفعال، ومثل تطوير علاقة الحاكم بالمحكوم أو المحكوم بالحاكم فى ظل منظومةٍ راقية تسمى الديموقراطية ومثل حقوقِ الإنسان، إلاَّ أن الحضارة الغربية لها أيضاً كبوات كبرى مثل انحلال الأسرة وتفاقم الظواهر السلبية كالجريمة والشذوذ والعنف، ناهيك عن التعصب العرقى الذى لم تستطع الحضارةُ الغربية أن تتخلصَ منه منذُ بدايتها، فقد كانت دائماً حتى فى أوقات ازدهارها العظمى حضارة ذات ثقافةٍ عنصرية، عرقية وأحياناً شوفينية.

وقد حيرنى أن الأغلبية العظمى فى واقعنا تنتمى لمجموعةٍ من المجموعاتِ الأربعة الأولى. أما المجموعة الخامسة فلا يكاد أفرادُها يتجاوزون فى عددهم المئات على مستوى الوطن العربى بأسره وهم فى الأغلب الأعم يتخوفون من إبداءِ وجهاتِ نظرهم، لأنهم كثيراً ما يقابلون بالهجوم وغالباً ما يكون الهجوم ظالماً عندما يتهمون بأنهم مبهورون بالحضارةِ الغربيةِ. والحق أن معظم هؤلاء غير مبهورين بالحضارة الغربية لأنهم يعرفون عنها ما يجعلهم يعجبون

بالكثيرِ من ثِمارها ولكن دون أن يمنعهم إعجابهم من رؤية وهدات الثقافة الغربية لا يستطيع أحدٌ أن يدافع عنها بعد أن أفقدت الإنسانَ مجموعةً من أهم مناطق خصوصياته التى كانت يجب أن تُصان وأن لا تذروها رياحُ العصرِ وهى كما قد ذكرت آنفاً تفكك الأسرة وشيوع أشكال أخرى عديدة من تعثر الفرد بالمجتمع.

ومع ذلك فإن معظم أفراد المجموعات الأربعة الأولى لا يفهمون موقفَ هذه المجموعة الخامسة ولعل السبب أن الإنسانَ عادةً لا يرى ما يجهل ويفقد تماماً القدرة على الحكم على ما لا يعرف. ولكن فى داخل المجموعات الأربعة تختلف المواقفُ، فبينما يتسم أفرادُ المجموعة الثالثة والرابعة بمسحةٍ تظهرهم وكأنهم عصريون ومتمدنون، فإن أفرادَ المجموعة الأولى والثانية يظهرون فى موقفٍ بالغ التعصب. والحقيقة أن أفرادَ المجموعات الأربعة يشتركون فى صفةٍ أساسيةٍ وهى أنهم يحكمون على أشياءٍ لا يعرفونها وأنهم يفتقدون ويفتقرون لأهم عناصر الحكم. كذلك فإن أفراد المجموعة الثالثة والرابعة ليسوا بالضرورةِ أكثرَ تحضراً

وتمدناً من أفرادِ المجموعةِ الأولى والثانية وإن كانت المظاهرُ الشكلية قد تدل أحياناً على ذلك وهو غير صحيح.

والمشكلة الكبرى أن الحوارَ يكاد يصبِحُ مستحيلاً بين أفراد المجموعة الخامسة والمجموعات الأربعة الأخرى، فإن ما يطلبه أفرادُ المجموعة الخامسة لا يجد أذناً صاغيةً لدى أفراد المجموعات الأربع الأخرى. لأنهم في الحقيقة يظنون أنهم يُهاجمون ويُطعَنونَ في مُقدساتهم فيتخذون موقفاً عاطفياً وجدانياً قد يبلغ حد العنف لأنهم يشعرون أن الواجب يملي عليهم الدفاع عما يعتزون به ويفتخرون به. ولا شك أن المسؤولية الثقافية والفكرية بل والوطنية، تلقى على أكتاف المجموعة الخامسة مهمةً كبرى. هي إقامةِ حوارٍ متحضر مع أفراد المجموعات الأربع الأخرى يؤسس على تسليطِ الضوء على الحقائق والأخذِ بيدِ أفرادِ المجموعاتِ الأربع الأخرى، ليروا أنه لا تعارض في الحقيقة بين أن يعرف الإنسانُ ثقافته ويفتخر بها ويبلغ في الاعتزاز بها أبعد الحدود وأن يكونَ في نفس الوقت ملماً بثقافةِ العصر المتمثلة في الثقافةِ الغربيةِ دون أن يَسْقطَ في وهدةِ الانبهار الأعمى

والتقديس الذليل لهذة الثقافة لأنها مجرد ثقافة إنسانية لها مزاياها ولها أيضاً عيوبها. ويجب على أفراد المجموعة الخامسة أن يحيطوا الحوارَ دائماً بإطارٍ من الاحترامِ مع بذلِ كل الجهودِ الفكريةِ والعقليةِ والثقافيةِ والموضوعيةِ لكى يظهروا لأفراد المجموعة الأولى والثانية بالذات أن الثقافة التى تسمى بالثقافةِ الغربيةِ ليست فى الحقيقة حضارة غربية محضة وإنما ثقافة إنسانية تمركزت حالياً فى الدولِ الغربيةِ المتقدمة ولكنها فى جذورِها أخذت الكثيرَ من الحضارةِ اليونانية القديمة ومن الحضارة العربية فى عصورِ ازدهارها كما أنهاأخذت الكثير من حضاراتٍ أخرى قديمة كالحضارةِ الرومانية وغيرها من الثقافاتِ الحديثةِ.

إن على أفرادِ المجموعة الخامسة أن يُظهروا أن الجمعَ بين فهم ثقافتنا العربية الإسلامية وبين فهمٍ واستيعابِ الثقافةِ الغربيةِ أمرٌ ممكنٌ وميسورٌ، دون أن يفقد الإنسانُ هويته ودون أن يصير تابعاً للثقافة الغربية بشكل أعمى. لذا لا يجب أن نسقط أبداً فى حفرة التساؤل المستحيل: "هل نتبع أم نأخذ هذه أوتلك؟" لأن الجواب السليم هو "هذه وتلك".

نأخذ من ثقافتنا الكثير، ونأخذ من ثقافة الغرب الكثير أيضاً وليس بواجبٍ علينا أن نأخذ من الغرب بالقدر الذى يمحو هويتنا وخصوصيتنا. ويبقى المحورُ الهام هو أن يعترف أفرادُ المجموعاتِ الأربعة الأولى بأن من لا يعرف شيئاً لايعرف حق الحكم عليه، وبالتالى فإن على أفراد المجموعتين الأولى والثانية أن يؤمنوا أن أحكامهم على الثقافةِ الغربية لا يمكن أن تكون سليمةً لأنهم بسهولةٍ وبوضوحٍ تامٍ لا يعرفونها، ولا يعنى ذلك على الإطلاق أن ثقافتهم العربية الإسلامية خاطئة، ولكنه يعنى أن أحكامهم على الثقافة الغربية لا تستند على أى أساسٍ من منطقٍ أو علمٍ. كذلك ينبغى أن نصل بأفرادِ المجموعةِ الثالثةِ والرابعة ليقينٍ واضح بأن مواقفهم ليست أفضل من موقف المجموعة الأولى والثانية لأنهم أيضاً يؤمنون إيماناً يقوم على التقديس فى غير محله والانبهار وهو ما لا يصلح لأن يكون أساساً للأحكام. ناهيك عن أنهم لا يعرفون عن الثقافة الغربية إلا القليل والقشور كما أنهم يجهلون عن ثقافتهم العربية كل شىء تقريباً، وهنا فإنهم يقعون مرة أخرى تحت طائلة الحكم المنطقى الذى لا يقبل النقاش بأن من لا يعرف

شيئاً لا يملك حق الحكم عليه وقد يكون أفرادَ المجموعةِ الثالثةِ والرابعةِ غير مهتمين بالحوار أصلاً. أما أفراد المجموعة الأولى والثانية فإن الانفعال والالتهاب الوجدانى الذى يتخذونه والربط الشديد بين المناقشة هنا وبين الكرامة والإعتزاز التى تشوب تناولهم للأمر تجعل الحوار شبه مستحيل وتجعله صعباً للغاية فهم أقرب ما يكونون للصدام، الأمر الذى يحول بينهم وبين أن يفتحوا أعينهم على حقائق إذا رأوها وجدوا أنهم يمكن أن يظلوا متمسكين باعتزازهم وفخرهم وانتمائهم لثقافتهم مع تعلم واسع وإدراك ومعرفة بثقافة الغرب التى هى ثقافة العصر دون أن يفقدوا هويتهم أو كرامتهم ودون أن يصبحوا تابعين لأحد. والحقيقة أنهم فى هذه الحالة يزدادون ولا ينقصون ويقوون ولا يضعفون، إلا أن الموقف الوجدانى الذى يتخذونه يجعل من الحوار معهم مهمة صعبة-وليست مستحيلة -وعلى أفراد المجموعة الخامسة أن يعرفوا أنه بدون الموضوعية والبعد عن الانفعال عن مس المقدسات، فإن الحوار مع أفراد المجموعة الأولى والثانية سرعان ما ينقطع ويُصبح من شبه المستحيل وصله مرة أخرى.

الفصل الحادى عشر

ثقافة الموظفين.

إن جالك (جاءك) الميرى، اتمرغ (تمرغ) فى ترابه.

"مثل عامى مصرى.."

فى كل مجتمع من المجتمعات يكونُ المناخ الثقافى مُشبعاً بعدة أفكار عن العملِ والوظائف يُشكلُ اتجاهها عنصراً من عناصرِ المناخِ الثقافىِ العام. فماذا عن هذا البعد فى "عقلِنا المصرى"؟.

إن نظرةً سريعةً لتاريخِنا الممتدِ عبر قرونٍ عديدةٍ تثبت أن (العملَ للحاكمِ أو للأميرِ أو للحكومةِ) كان دائماً شيئاً بالغَ القيمةِ والأهميةِ فى ذهنِ وعقولِ وتفكيرِ المصريين .... إن نظرةً سريعةً لتاريخِ مصرَ كما كتبُه مؤرخون ثقاةٌ مثل المقريزى وابن إياس (صاحب أوثق تاريخ للحقبةِ المملوكيةِ

التى امتدت بشكلٍ سافرٍ حتى سنة ١٥١٧ وهى السنة التى قُتلَ فيها طومان باى بعد دخولِ الجيش العثمانى لمصرَ بقيادةِ السلطان سليم شخصياً وصيرورة مصرَ "ولايةً عثمانيةً"..) إن نظرةً سريعةً لهذهِ الكتاباتِ التاريخيةِ الرائعةِ تُثبت أن (العملَ للحاكمِ أو للأميرِ أو للحكومةِ) كان دائماً شيئاً قيماً ومميزاً عند المصريين ...

وما أن بدأت الحكومةُ تتحول إلى شكلٍ عصرىٍّ من أشكالِ الإدارةِ فى عهدِ محمد على حتى تعاظمتْ قيمة أن يعمل المصرى فى عملٍ مرتبطٍ بالحكومةِ ... أو بالأميرِ... وهو مصدر كلمة (أميرى) أو ميرى التى كانت دائماً ذات دلالةٍ واضحةٍ...الموظف الميرى... والثياب الميرى... وكل ما هو (ميرى)، كان دائماً ذا دلالةٍ واضحةٍ ومميزةٍ.

وإذا كانت الأمثالُ الشعبية هى ترجمةً واضحةً ودقيقةً لمكوناتِ عقلِ الجماعةِ، فإن كتابَ الأمثالِ الشعبيةِ المصريةِ لأحمد باشا تيمور يقفُ شاهداً بما احتواه من أمثلةٍ عن قيمةِ وأهميةِ العمل تبع الحكومة عند المصريين الذى عبّرُوا عن

حبهم الشديد للارتباطِ مدى الحياة بالعملِ الميرى والذى جاءت الأمثلةُ لتبالغ فى تصويرِه عندما تحدثت عن روعةِ التمرغ فى ترابِ الميرى أى الأميرى أى الحكومى.

ومن هذا الارتباط الوثيق بين المصرى والميرى، نبتت عدةُ مفاهيمٍ صارت كالمسلماتِ، لعل من أهمِها ما يلى:

١- أن التوظفَ الحكومى أرقى وأكرم من التوظفِ للقطاعِ الخاص.

٢- أن التوظفَ الحكومى هو (الضمانةُ الكبرى) فى مواجهةِ مخاطرِ الرزق والحياةِ.

٣- أن التوظفَ الحكومى أفضلُ من التوظفِ للقطاعِ الخاصِ حتى لو كان مردودُه المادى أقلَ بكثيرٍ.

٤- أن التوظفَ الحكومى مصدرٌ "وجاهةٍ اجتماعيةٍ" لاسيما عندما يرتقى الموظفُ العام لقممِ الوظائف العامة،

وهذه الوجاهةُ الاجتماعية بالذات أصبحت عبر السنين مصدرَ "قيمة عظمى" عند المصريين.

٥- أن "الاستقالةَ" و"تغييرَ العملِ" هما من الأمورِ نادرةِ الحدوث نظراً لأنهما ينطويان على إخلالٍ جسيمٍ بالمفهومِ المستديمِ للوظيفةِ العامةِ، لدرجةٍ أن المجتمعَ أصبح ينظر للمستقيلِ نظرتَه للمغامرِ أو الطائشِ الذى لا يُحسن تقديرَ الأمورِ.

وقد قصَّ على أحدُ الأصدقاء وهو مؤلفٌ لأكثر من خمسين كتابٌ نصفها عن الحضارةِ المصريةِ القديمةِ والنصفُ الآخر عن الآدابِ الأوروبيةِ الحديثةِ أنه عندما قدم استقالته من العملِ الوظيفى وهو وكيل وزارة النقل قام رئيسُه بتمزيقِ الاستقالة فى موقفٍ يُعبرُ عن أنه إنقاذٌ له من مغبةِ ورقةٍ طائشةٍ لابد أن صاحبَها قد سطرَها فى لحظةِ إحباطٍ أو غضبٍ أو طيش! وهذا المؤلف هو الأستاذ/ مختار السويفى الذى أصرَ على قرارِه وعلى تفرغهِ للتأليفِ والكتابةِ. وهناك عشرات الأمثلة المشابهة والتى تعبرُ كلُها عن "عمقِ قيمةِ

الوظيفةِ الحكوميةِ الآمنةِ والمستمرةِ" عند معظمِ المصريين.

وربما لا توجد قصةٌ تدلُّ على عمقِ هذا المفهومِ من حوارٍ دار بيني وبين شابٍ كنت أعلم أنه يعملُ بإحدى الصحف إلاَّ أنه أدهشني بقوله أنه ما زال لا يعمل ... فلما سألته عن عمله بالجريدةِ التي كنت أعلم أنه يعملُ بها قال لي (أنا لم أثبت بعد...يعني لا أعمل)...وهكذا فإن العملَ الذي يقومُ به والأجر الذي يحصلُ عليه ليسا في اعتقادِه دليلاً على أنه يعمل لأنه (غيرُ مثبتٍ) وهي حالة تعبر بوضوحٍ كاملٍ عن مفاهيمٍ إداريةٍ ثقافيةٍ تنبعُ كلُها من دائرةِ الوظيفةِ الحكوميةِ.

ولكن من المؤكدِ أن المستقبلَ لن يكون -في هذا المجالِ- صورةً مكررةً من الماضي. فمن المؤكدِ أن دورَ الدولةِ الواسع في الحياةِ الاقتصاديةِ والذي بلغ قمةَ اتساعِه في مصرَ في الستينيات سوف يكون مختلفاً تماماً في المستقبلِ القريبِ. فالدولةُ التي كانت بمثابةِ (ربِ العملِ) للسوادِ الأعظمِ من المصريين، لن تكون كذلك في المستقبل. وسيقتصر دورُ

الدولة -كما ذكرت- على وضعِ السياساتِ والتشريعاتِ ومراقبةِ تطبيقها. أما الأنشطةُ الاقتصاديةُ الإنتاجيةُ والخدميةُ فسيتحول معظمُها للقطاعِ الخاصِ، وستكون فرصُ العملِ لدى الحكومةِ أو القطاعِ العام فى انحسارٍ مستمرٍ. وفى المقابلِ، فإن معظمَ فرصِ العملِ الجديدةِ ستكونُ فرصاً يطرحُها القطاعُ الخاصِ.

ولاشك أن ذلك سيعنى-فيما يعنى- ذبول العديدِ من المفاهيمِ الإداريةِ التى كانت تنبعُ من كونِ الأغلبيةِ تعملُ لدى الحكومةِ. ولاشك أن مفاهيماً أخرى جديدة سوف تبرز وتصبح هى (الأساسَ) للثقافةِ الإداريةِ الشائعةِ فى المجتمعِ.

فما هى أهم ملامح تلك المفاهيم التى يُعتقد أنها ستصاحبُ وتواكبُ تحولَ المجتمعِ لاقتصادِ السوقِ؟

من الممكن الاسترسال فى العديدِ من ملامحِ هذا التغييرِ، ولكننى أفضلُ الإيجازَ والاقتصارَ على بعضِ (لا كل) المفاهيمِ المتوقعِ أن تكوّن ما نسميه بثقافةِ المستقبلِ الإدارية:

١- فرصُ العملِ بين احتياجاتِ السوق الفعليةِ والمؤهلات الدراسية:

بينما تحكم سوق الوظائف نوعية وخلفية المؤهلات الدراسية للشخصِ فى نظمِ الاقتصادِ الموجه، فإن نظم إقتصاد السوق تنطلق فى هذه الجزئية من زاوية مختلفة وهى حقائق واحتياجات السوق وهو ما ينعكسُ على المدى الطويلِ على البرامجِ الدراسيةِ وتوجهاتِ الأشخاصِ الذين يأخذون فى الاعتبارِ حقائقِ السوقِ قبل أى اعتبارٍ آخر.

٢- تراجع عددِ الوظائف التى تستغرق الحياةَ العملية للإنسان:

منذ سنوات غير بعيدة كان أشخاص عديدون يقضون عمرهم العملى أو الوظيفى فى مكان عملٍ واحدٍ ولكن من المؤكد أن حقائق الحياة الاقتصادية العصرية لن تسمح بالعديدِ من هذه الحالاتِ حيثُ سيكون من الصعبِ تصور وجود وظيفة لمدى العمر العملى لأعدادٍ كبيرةٍ من الناسِ وقد بدأت مجتمعات عديدة تشهد ظاهرة تنقل

الإنسان فى حياته العملية من وظيفةٍ لأخرى ومن مجالٍ عملى لمجالٍ آخر، ومع ذلك فمن الضرورى أن نذكر أن المناخ الحضارى والثقافى يلعب دوراً هاماً فى ما يتعلق بهذه الجزئية ولا أدل على ذلك من النموذج اليابانى.

٣- ذبول واندثار مفهوم "الأقدمية" الذى نشأ واستقر فى ظل الوظيفةِ العامة:

كان شغل الوظائف الكبرى فى مجتمعنا، مثله مثل العديد من المجتمعاتِ، على أساسٍ من مفهوم الأقدمية الذى رسخ فى مفاهيمنا الإدارية لسنواتٍ طويلةٍ ولكن حقائق الإقتصاد المعاصرة تؤكد أن تولى الوظائف العليا سيكون فى المستقبل لأسبابٍ ليس من بينها الأقدمية.

٤- ذبول واندثار أهمية (السن) و(المؤهل الدراسى) كمعيارين أساسيين للعديدِ من الوظائفِ. وفى المقابلِ، فإن المستقبلَ سيشهدُ حالاتٍ عديدةٍ يرأسُ فيها من هم (أصغر سناً) أشخاصاً فى سنٍ أكبرْ... كما سيشهدُ المستقبلُ حالاتٍ عديدة يرأس فيها أصحابُ مؤهلاتٍ

دراسيةٍ ما أشخاصاً يحملون درجاتٍ علمية أكبر وأعلى، وهو الوضع الشائع فى المؤسساتِ الاقتصاديةِ العالميةِ الكبرى كالشركاتِ متعددةِ الجنسيات، حيث يكون المعّول على (الكفاءة) كما تُعبر عنها النتائجُ لا كما تُعبر عنها (الأوراقُ).

٥- تعاظم قيمةِ (الكفاءةِ الشخصيةِ) Personal Competence محل القيم التى تأخذ طريقها لِلاندثارِ مثل قيم (السن) و(الأقدمية) و(مسميات الدرجات العلمية).

٦- تعاظم أهمية قيم جديدة مثل:

أ- القدرة على الاتصالات.
Communication Skills.

ب-القدرة على القيادة.
Leadership Ability.

ج- التمييز بين فئة الـ Generalist وفئة الـ Specialist.

د- التمييز بين الأداء Performance والقدرة Potential.

٧- كذلك سينحسرُ دورُ القياداتِ الإداريةِ ذات الأبعادِ المحليةِ (Localized) لصالحِ القياداتِ الإداريةِ ذات البعد الدولى، وهى نتيجةٌ طبيعيةٌ لنظمِ العولمةِ (Globalization) ولاتفاقياتِ الجات وما يماثلها من نظمٍ تهدفُ للتقليلِ من الحمائيةِ وتعظيمِ المنافسةِ.

الفصل الثانى عشر

تمجيد الفرد.

(نجاهد ليرضى "الجهاد" لا ليرضى"عمر بن
الخطاب"...).

"أبو عبيدة بن الجراح".

أقوامُ هذا الشرق ما سئمت
شيمَ العبيدِ، وقبحت شيما
لا يحفلون بغير من رفعت
سادتُهم .. فليرفعوا الخدما.
"العقاد

موضوع هذا الفصل من الأمورِ التى تقف على الحدِ الفاصلِ بين مناطق عديدة، لذلك فإن تناوله ينبغى أن يتم بمزيد من الموضوعيةِ وبدون انفعال لا مبرر له، رغم أنه موضوع يدعو للانفعالِ. ولب الموضوع هو علاقة المصريين بحكامِهم (تاريخياً) وهى علاقة تختلف عن علاقة معظم شعوب العالم بحكامهم. فمصرُ التى ألّهت حكامها منذ عشرات القرون ...

ومصر التى أعطت حكامها المماليك "الأبهة والسلطان المطلق والتفخيم العظيم"، لا تزال آثار منها فى وجدانِ وعقولِ أبنائها وهم يقفون اليوم على مشارف القرن الحادى والعشرين.

فهل هذه "العلاقة الخاصة" بين المصريين وحكامهم أمر إيجابى يجب الاحتفاظ به، أم أنه أمر تشوبه جوانب سلبية يجب أن ننعم النظر فيها وندرسها كعيوب يجب العمل على التخلى عنها؟ .. ثم ما هى الجهة المسئولة عن وجود هذه العلاقة: التاريخ؟ .. أم الحكام؟ .. أم نحن أبناء هذا الوطن؟ وإذا كانت هناك سلبيات، فما هى الجهة القادرة على بدءِ مشروع العلاج؟

وهكذا، يجد القارئ نفسه (معنا) فى خضم مناطق بالغة الحساسية وتحتاج لأن يكبح المرء عنان انفعالاته وهو يتدبرها ويعتمد -أساساً- على العقلِ والتفكيرِ الموضوعى الذى يتجنب الحماس الزائد والشطط.

أما الجزئية الأولى، فأعتقد أن علاقة المصريين بالشخصياتِ العامةِ تحتاج لأن تُخلى من هالاتِ التقديس التى تكتنفها أحياناً. فحتى الحاكم فإنه ابن من أبناء هذا الوطن يتحلى بقدرات وإمكانات عقلية ودراية وخبرة وموضوعية واتزان وإخلاص تجعله قادراً على تنفيذ ما هو منوط به من مهام. ويعنى ذلك أن العلاقة يجب أن تكون مؤسسة على هذه الأرضية وأن تخلى مما يشوبها من أبعاد تضرب جذورها فى التاريخ الطويل لهذا الوطن وبالذات للتاريخ الفرعونى والمملوكى.

فنحن إذن نخرج بالعلاقة من كونها (مهمة بالغة الأهمية) إلى صيغة عاطفية نحيطها بهالاتٍ من التقديسِ والارتفاعِ عن أرضِ الواقعِ. ونحن نفعل ذلك -بنفس الكيفية- مع كل حكامنا. ويقينى، أن "الحاكم" ليس هو مصدر هذه الظاهرة، وإنما هى "ظاهرة" ذات جذور عميقة فى وجداننا بشكلٍ يجعلها تتكرر -منذ قرون عديدة- وبنفس الكيفية مع أشخاص مختلفين.

وهناك الكثير الذى يمكن أن يُقال عن أثرِ العهد المملوكى على تكوين الشخصية (أو العقلية) المصرية فى هذا المجال بالتحديد، ولكن ذلك سيخرجنا عن المحور الذى يدور حوله اهتمامُنا. فنحن نزعم أن هناك شبه اتفاق تام بين المثقفين فى هذا الوطن على أن علاقة "الحاكم بالحكومين" والموجودة فى الديمقراطيات المستقرة هى هدف نتطلع لأن نبلغه. وإن هذه العلاقة تقوم على أساس أن الحاكم يقوم بمهمة وأنه مسئول عن تحقيقِ أهداف هذه المهمة دون أن ننتقل به إلى مكانة غير واقعية محاطة بالتقديس المبالغ فيه والذى يخرج بالعلاقةِ عن الحدودِ التى يسمح بها الزمن وتطور الديمقراطية.

ونحن هنا لا نبسط الأمور بتوجيه الاتهام لأحد، فالتاريخ هو الصانع الأول للظاهرة التى نتناولها، ونحن (الشعب) الجهة الأساسية التى تنبع منها هذه الظاهرة. والمثقفون فى هذا الوطن يأملون أن يحدث تطوير فى هذه الجزئية بحيث تتحول العلاقة إلى ما يشبه "علاقات العمل" وإن كانت "علاقة عمل" على أعلى درجة من الأهميةِ.

وأما **الجزئية الثانية**، فتتعلق بآلية إحداث التغيير فى هذا الشأن. ورغم تسليمى بأن "المحكومين" فى هذا الوطن هو مصدر "الظاهرة" إلاَّ أن التغيير يبقى مستحيلاً ما لم يبدأ من قمة الهرم المجتمعى، إذ أن البدء من القاعدةِ مستحيل لعمقِ الظاهرة ومدى اتساعها.

وأعنى، أن رأس المجتمع هو القادر على البدءِ فى بث قيم أخرى مختلفة فى هذا المجال: قيم تناسب حقيقة العلاقة بين الطرفين (كما آلت إليه مع التطور الإنسانى) وتناسب القيم التى استقرت فى المجتمعات ذات الحظ الوافر من الديموقراطية.

ولا شك أن بدء هذه المهمة من قمة المجتمع يجب أن تتبعها تغيرات فى برامجِ التعليمِ والإعلامِ تبث (بهدوء وعقلانية) القيم المعاصرة للمجتمعاتِ المتقدمة فى هذا الشأن.

الفصل الثالث عشر

محليون.... للنخاع.

تجتمع عدةُ أسباب لجعل (جرعة المحلية) عند المواطن المصرى المتوسط المعاصر مفرطة فى الاتساع، كما أن نفس الأسباب تجتمع لتجعل (جرعة العالمية) عند نفس المواطن بالغة التواضع.

فالمجتمعات القديمة من جهة، كثيراً ما يُعانى أبناؤها من الإغراقِ فى المحليةِ، فالدنيا عند هؤلاء هى هذا الوطن فى المقامِ الأولِ والأخير.... ومن هنا خرجت المقولة الدارجة (مصر أم الدنيا).

ومن جهةٍ ثانية، فإن سنوات الستينيات والسبعينيات والتى كانت بمثابة "قاعدة الانطلاق" على مستوى العالم الخارجى لما جاء بعد ذلك من ثورة الاتصالاتِ وسقوط الجدران الفاصلة والعازلة بين الدول والشعوب وبداية

الإعلام الذى يتخطى حدود الدول والاقتصاد الذى يتبع نفس النسق، خلال هذين العقدين، كنا نحن ممعنين فى المحلية والحد من التواصل مع "دنيا الخارج".

ومن جهةٍ **ثالثة**، فإن برامجنا التعليمية قد توالت التركيز على الداخلِ (تاريخنا وحضارتنا وآدابنا) بشكل يناقض -مثلاً- برامج التعليم فى دولة مثل فرنسا تولى مقررات دراسة تاريخ مصر القديمة والصين والحضارتين الإغريقية والرومانية ما توليه لمقررات دراسة تاريخ فرنسا ذاتها.

ومن جهةٍ رابعة، فإن نشأة جهاز الإعلام المصرى من بدايته كذراع للحكومة وما حدث (على نفس الشاكلة) للصحف المحلية، قد جعل "رسالة الإعلام المصرى" لسنوات غير قليلة "رسالة محلية بحت"، ولا أدل على ذلك من مقارنةِ نشرة الأخبار الرئيسية لدينا بنشرة الأخبار فى معظم دول العالم -فالأخبار المحلية لدينا تكتسح الصورة، بينما معظم نشرات الأخبار تتابع الأحداث أياً كان موقعها الجغرافى.

ومن جهةٍ خامسة، فإن نمو التيار السلفى (نسبياً) فى مجتمعنا كان انتصاراً قوياً للمحلية على حساب الدولية. ولا شك أن مستقبل العالم بأسره يشهد إنحساراً نسبياً للمحلية وازدياداً واضحاً للدولية أو العالمية. وإن ذلك يقع على أرض الإقتصاد كما يقع على أرض الثقافة والفكر والتعليم والإعلام.

وبالتالى، فإن عدم استفاقتنا على ضرورة العمل العلمى الجاد على خلق معادلة متوازنة بين (المحلية) و(العالمية) سيجعلنا أقل قدرةً على التعامل الفعّال والإيجابى والمثمر مع آليات الواقع الجديد.

وإذا كنت قد ذكرت -مكرراً- فى العديدِ من الكتاباتِ والمحاضرات، أن المحرك (الموتور) الذى ستعتمد عليه المؤسسات والشركات والمجتمعات هو (الإدارة الفعّالة)، فإننى أُضيف هنا أن الإدارة الغارقة فى المحلية (ستكون عاجزة تماماً عن خوض لعبة المستقبل بنجاح فأساس هذه اللعبة مزدوج:

* الإدارة الفعّالة، بمعنى القيادة المثمرة.

* المعرفة الواسعة بعناصرِ اللعبة على المستوى الدولى.

وسينطبق ذلك على (الشق الاقتصادى) من حياة المجتمعات

كما سينطبق على (الشق السياسى).

خاتمة

ما دَخل اليهودُ من حدودِنا...
وإنما تسربوا كالنملِ من عيوبِنا..
"نزار قباني..."

(أ)

تضمن هذا الكتاب عدداً من العيوب التى أعتقد أنها تشوبُ تفكيرَ العديدين منا، بشكل يسوّغ لنا أن نقول إنها باتت تشكل المعالم أو الملامح السلبية لعقل قطاعات كبيرة منا (كمصريين وكعرب). وإن كان ذلك يقتضى إدراج الملاحظات التالية:

* أن الكتابةَ عن هذه العيوبِ لا تعنى أنها تشكل "كل ملامحنا" الثقافية، فأنا لم أقصد ذلك ولم أكتب وصفاً

لحضارتنا أو لثقافتنا، وذلك ما كان يقتضى الكتابة عن "المناقب" و"المثالب" -وإنما كنت أكتب تحت عنوان محدد للغاية هو (نقد العقل العربى). فإذا جاء قارئ بعد ذلك وقال: إن هذا الكاتب لا يرى فى تفكيرنا إلاَّ مآخذاً وعيوباً، كان من حقى أن أصف ذلك بالتعسفِ وإلقاء القول على عواهنه.

* أننى كرجل يمقت "التعميم" أقول إن هذه العيوب تشوب تفكير البعض، ولا يمكن أن يكون قصدى أن تلك العيوب (جميعها) هى ملامح تفكير الكل. فلا أنا قصدت اتسام كل أساليب التفكير بهذه العيوب، ولا أنا قصدت توفر كل هذه العيوب بدرجةٍ واحدةٍ عند الكل.

(ب)

كذلك من المهم للغاية فى هذه الخاتمة أن أقرر أننى من بين اثنين وعشرين فصلاً كتبتها بالفعل تحت عنوان (من عيوب تفكيرنا المعاصر)، فإننى اخترت أن يتضمن هذا الكتاب نصفها فقط، فلم أضمنه ما كتبت عن عيوب أخرى

لأننى رأيت أن "درجة الاستعداد" لقبول مثل هذه الكتابة لا تحتمل أكثر مما انتقيت من فصول. فإن ما كتبته -مثلاً- عن "الآخر... فى تفكيرنا" قد يصدم بجرعة أكبر مما يراد من موقف الرغبة فى الإصلاحِ لا الرغبة فى الإيلامِ. لذلك فقد اكتفيت بأن يتضمن الفصل الخامس من هذا الكتاب أقل من عشر (١٠٪) ما كتبته بخصوصِ هذه المسألة. وربما تسمح ظروف تطورنا الاجتماعى والاقتصادى والثقافى بنشرِ الأجزاء التى رأيت صواب تأجيل نشرها فيما بعد، فالذى يكتب لقراءٍ هم منه بمثابة الأهل لن يكون بوسعه تقديم جرعة من الصراحة "توجع" أكثر مما تفيد.

(ج)

وخلاصة ما أردت فى هذا الكتاب الصغير (فى حجمه) أن أقوله إن الحاضر والمستقبل يشهدان تغيّرات جذرية فى الحياة الإقتصادية كما يشهدان عالماً مختلفاً يشهد من الصراع والمنافسة أكثر وأكبر مما يُقدر الكثيرون منا. وأن ذلك يقتضى عملاً جاداً على مستوى الإصلاح الاقتصادى والسياسى والاجتماعى، ولكنه يقتضى أيضاً نوعاً من

الواجب الداخلى Home Work على مستوى التعليم والإعلام والثقافة بهدف أن ننقى أبناء وبنات هذا الوطن من مآخذ ستجعلهم أقل قدرة على الأداء المتميّز فى لعبة المنافسة التى تمليها قواعدُ الواقع الجديد.

وكاتب هذه السطور يؤمن إيماناً عميقاً وصلباً بأن الإنسان بصفته (مورداً بشرياً) سيكون هو عماد الحركة المجتمعية المستقبلية بوجه عام والحركة الاقتصادية بشكلٍ خاص- وهو ما يعنى حتمية العمل الجاد على خلق إنسانٍ أكثر تحرراً من عيوبِ التفكيرِ الموصوفة فى هذا الكتاب، حتى يكون إنساناً تنافسياً فعالاً (Effective Competitive Person) يملك القدرةَ على خلقِ مكانٍ متميّزٍ فى عالمِ الواقعِ الجديد، حيث تنحسر سبلُ الحماية الاصطناعية وينفتح المجالُ على مصراعيه أمام التنافسِ بكل ما تعنيه الكلمةُ من معانٍ.

"لحن ختامي من جبران".

(بالاختصار فالشرقيون يعيشون فى مسارح الماضى الغابر ويميلون إلى الأمور السلبية المسلية المفكهة ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية المجردّة التى تلسعهم وتنبّههم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام الهادئة. إنما الشرق مريض قد تناوبه العلل وتداولته الأوبئة حتى تعوّد السقم وألف وأصبح ينظر إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعّية بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة فمن كان خالياً منها عُد ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلوية.

وأطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتآمرون فى شأنه ولكنهم لا يداوونه بغير المخدّرات الوقتّية التى تطيل زمن العلّة ولا تبرئها. أنا أبكى على الشرقيين لأن الضحك على الأمراض جهل كبير. أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء أمام المصيبة غباوة عمياء).

جبران خليل جبران

من كتاب "العواصف" (١٩٢٠).

مؤلفات طارق حجّى

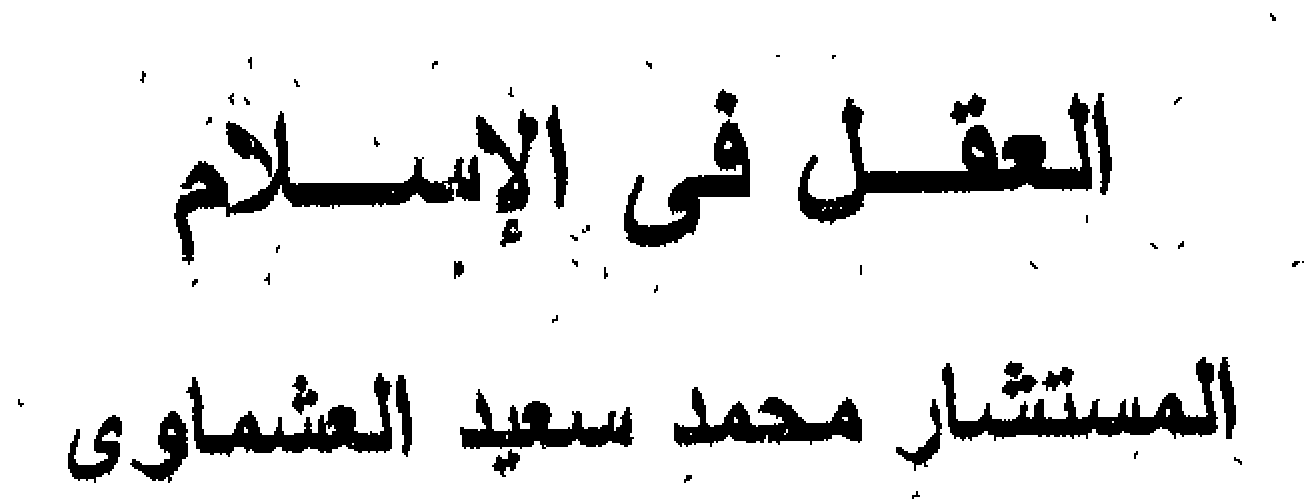
١- أفكار ماركسية فى الميزان. (١٩٧٨)
٢- الشيوعية والأديان. (١٩٨٠)
٣- تجربتى مع الماركسية. (١٩٨٣)
٤- ما العمل؟ (١٩٨٦)
٥- الأصنام الأربعة. (١٩٨٨)
٦- ثالوث الدمار. (١٩٩٠)
٧- مِصرَ بين زلزالين. (١٩٩١)
٨- التحول المصيرى. (١٩٩٣)
٩- نظرات فى الواقع المصرى. (١٩٩٥)
١٠-نقد العقل العربى. (١٩٩٨)

1 1 -Egypt's Contemporary Problems (1992).
1 2 -Critique of Marxism (1992).
1 3 -On Management and Petroleum Industry(1991).
1 4 -L'inéluctable Transformation.

فهرست الكتاب

الموضوع الصفحة


فى
المكتبات


العقل فى الإسلام
المستشار محمد سعيد العشماوى

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًا
- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

رقم الإيداع	١٩٩٩/٤٢٠٣	
الترقيم الدولى	977-02-5774-5	ISBN

١/٩٩/٢٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

يقول الفيلسوف الألمانى كانط «إن النقد هو أهم أداة بناء ابتدعها العقل الإنسانى» . وانطلاقاً من هذا المفهوم وضع طارق حجى هذا الكتاب الذى يتضمن تشريحاً لعدد من عيوب تفكيرنا المعاصر التى أصبحت تجسد الوجه السلبى لعقلنا المعاصر، برغم أنها ليست من سماتنا العرقية ولكنها ثمار طبيعية للظروف التاريخية والسياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، وهو ما يعنى أن التعامل معها وعلاجها أمر ممكن عن طريق القدوة ومناهج التعليم والمناخ الثقافى والأعلامى العام.

هذا الكتاب يقف فى مواجهة طوفانات مدح الذات والتفاخر الشديد التى أصبحت من معالم الجو الثقافى العام.



٤٠٦٩٣٤/٠١